تفسير سورة الضحى

وهي مكية. روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرىء قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عبّاد، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ قالا لي: كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك. وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك. وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك. فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات، فأما في الحديث فقد ضعَّفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال له: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث. ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته، فقال بعضهم: يكبر من آخر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾. وقال آخرون: من آخر ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾. وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول: الله أكبر، ويقتصر، ومنهم من يقول الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر. وذكر الفراء في مناسبة التكبير من أول سورة «الضحى»: أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاءه الملك فأوحى إليه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ السورة بتمامها، كبر فرحاً وسروراً. ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف، فالله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن الأسود بن قيس قال: سمعت جُنْدُباً يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. رواه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير، من طرق، عن الأسود بن قيس، عن جُنْدُب ـ هو ابن عبد الله البجلي ثم العلقي به، وفي رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس: سمع جندباً ـ قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: وُدِّع محمد. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثني سفيان، حدثني الأسود بن قيس، أنه سمع جندباً يقول: رمي رسول الله ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

هـــل أنـــت إلا أصـــبـــع دمـــيـــت وفـــي ســـبـــيـــل الله مـــا لـــقـــيـــت؟

قال: فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم، فقالت له امرأة: ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فنزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. والسياق لأبي سعيد. قيل: إن هذه المرأة هي: أم جميل امرأة أبي لهب، وذكر أن إصبعه، عليه السلام، دميت. وقوله ـ هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون ـ ثابت في الصحيحين، ولكن الغريب ها هنا جعله سبباً لتركه القيام، ونزول هذه السورة. فأما ما رواه ابن جرير: حدثنا ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، عن عبد الله بن شداد: أن خديجة قالت للنبي: ما أرى ربك إلا قد قلاك. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. وقال أيضاً: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ، فجزع جزعاً شديداً، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك. قال: فنزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ إلى آخرها. فإنه حديث مرسل من هذين الوجهين ولعل ذكر خديجة ليس محفوظاً، أو قالته على وجه التأسف والتحزن، والله أعلم. وقد ذكر بعض السلف ـ منهم ابن إسحاق ـ أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا

أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. قال: قال له هذه السورة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فأنزل الله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي: سكن فأظلم وادلهم. قاله مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغيرهم. وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ أي: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. ولما خُيِّر، عليه السلام، في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله ﷻ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم النَّخعي، عن علقمة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها». ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث المسعودي به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه من مسك أذفر، كما سيأتي. وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي، عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً، فسر بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس: ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف. وقال السدي، عن ابن عباس: من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا معاويةُ بن هشام، عن علي بن صالح، عن زيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا أهلُ بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾». ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، وذلك أن أباه توفي وهو حملٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد، عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويُوقره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم أووه ونصرُوه وحاطوه وقاتلوا بين يديه، رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢] ومنهم من قال إن المراد بهذا: أنه عليه السلام، ضل في شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع. وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام، وكان راكباً ناقة في الليل، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق. حكاهما البغوي. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أي: كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي: الفقير الصابر والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ قال: كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله، ﷻ. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وفي الصحيحين ـ من طريق عبد الرزاق ـ عن معمر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدّثنا أبو هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ أي: كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه،

وتلطف به. قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. قال ابن إسحاق: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ أي: فلا تكن جباراً، ولا متكبراً، ولا فحّاشاً، ولا فظّاً على الضعفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رد المسكين برحمة ولين. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ أي: وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا». وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلية، حدثنا سعيد بن إياس الجُريري، عن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا الجراح بن مليح، عن أبي عبد الرحمن، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر. والجماعة رحمة، والفرقة عذاب» إسناد ضعيف. وفي الصحيحين، عن أنس، أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله. قال: «لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم». وقال أبو داود: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الربيع بن مسلم، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن ابن المبارك، عن الربيع بن مسلم، وقال: صحيح. وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن الجراح، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره». تفرد به أبو داود. وقال أبو داود: حدثنا مُسدَّد، حدثنا بشر، حدثنا عمارة بن غَزية، حدثني رجل من قومي، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطي عطاء فَوَجَد فلَيجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره». قال أبو داود: ورواه يحيى بن أيوب، عن عُمارة بن غزية، عن شرحبيل عن جابر ـ كرهوه فلم يسموه ـ. تفرد به أبو داود. وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك. وفي رواية عنه: القرآن. وقال ليث، عن رجل، عن الحسن بن علي: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ قال: ما عملت من خير فحدث إخوانك. وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها، وادع إليها. وقال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة، فصلى.

آخر تفسير سورة «الضحى» ولله الحمد

❁ ❁ ❁

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَى مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى ، والليل إذا سجى ﴾ لأهل التفسير فى قوله (والضحى) وجهان : (أحدهما) أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى شعاعها (وثانيها) الضحى هو النهار كله بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .

وأما قوله (والليل إذا سجى) فذكر أهل اللغة فى (سجى) ثلاثة أوجه متقاربة . سكن وأظلم وغطى (أما الأول) فقال أبو عبيد والمبرد والزجاج : سجى أى سكن يقال ليلة ساجية أى ساكنة الريح ، وعين ساجية أى فاترة الطرف . وسجى البحر إذا سكنت أمواجه ، وقال فى الدعاء :

يا مالك البحر إذا البحر سجى

(وأما الثانى) وهو تفسير سجى بأظلم . فقال الفراء : سجى أى أظلم وركد فى طوله .

(وأما الثالث) وهو تفسير سجى بغطى ، فقال الأصمعى وابن الأعرابى سجى الليل تغطيته النهار ، مثل مايسجى الرجل بالثوب ، واعلم أن أقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس : غطى الدنيا بالظلمة ، وقال الحسن : ألبس الناس ظلامه ، وقال ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير : إذا أقبل الليل غطى كل شيء ، وقال مجاهد وقتادة والسدى وابن زيد : سكن بالناس ولسكونه معنيان (أحدهما) سكون الناس فنسب إليه كما يقال ليل نائم ونهار صائم (والثانى) هو أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الحكمة فى أنه تعالى فى السورة الماضية قدم ذكر الليل ، وفى هذه السورة أخره ؟ قلنا : فيه وجوه (أحدها) أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين ، والليل له فضيلة السبق لقوله (وجعل الظلمات والنور) وللنهار فضيلة النور ، بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، لاجرم قدم هذا على ذاك تارة وذاك ، على هذا أخرى

www.besturdubooks.wordpress.com

ونظيره أنه تعالى قدم السجود على الركوع فى قوله (واسجد واركعى) ثم قدم الركوع على السجود فى قوله (اركعوا واسجدوا) (وثانيها) أنه تعالى قدم الليل على النهار فى سورة أبى بكر لأن أبا بكر سبقه كفر ، وههنا قدم الضحى لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما سبقه ذنب (وثالثها) سورة والليل سورة أبى بكر ، وسورة الضحى سورة محمد عليه الصلاة والسلام ثم ما جعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد وأبى بكر ، فإذا ذكرت الليل أولا وهو أبو بكر ، ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد ، وإن ذكرت والضحى أولا وهو محمد ، ثم نزلت وجدت بعده ، والليل وهو أبو بكر ، ليعلم أنه لا واسطة بينهما .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الحكمة ههنا فى الحلف بالضحى والليل فقط ؟ (والجواب) لوجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول الزمان ساعة ، فساعة ساعة ليل ، وساعة نهار ، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى . بل للحكمة ، كذا الرسالة وإنزال الوحى بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس ، فلا كان الإنزال عن هوى ، ولا كان الحبس عن قلى (وثانيها) أن العالم لا يؤثر كلامه حتى يعمل به ، فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعى واليمين على من أنكر ، لم يكن بد من أن يعمل به ، فالكفار لما ادعوا أن ربه ودعه وقلاه ، قال هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ماودعه ربه وما قلاه (وثانيها) كأنه تعالى يقول : انظروا إلى جوار الليل مع النها لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب وتارة يغلب فكيف تطمع أن تسلم على الخلق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم خص وقت الضحى بالذكر ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش فى زمان الليل ، فبشروه أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحى يظهر ضحى نزول الوحى (وثانيها) أنها الساعة التى كلم فيها موسى ربه ، وألقى فيها السحرة سجداً ، فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفاً ، فكيف فاعل الطاعة ! وأفاد أيضاً أن الذى أكرم موسى لا يدع إكرامك ، والذى قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما السبب فى أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل بكليته ؟ (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أنه إشارة إلى أن ساعة من النهار توازى جميع الليل كما أن محمداً إذا وزن يوازى جميع الأنبياء (والثانى) أن النهار وقت السرور والراحة ، والليل وقت الوحشة والغم فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أدوم من سرورها ، فان الضحى ساعة والليل كذا ساعات ، يروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء عن يساره ، ونادت ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطرى الهموم والأحزان مائة سنة ، ثم انكشفت فأمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى تمام ثلاثمائة سنة ، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت : ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطرى السرور ساعة ، فلهذا السبب ترى الغموم والأحزان دائمة ، والسرور قليلا

www.besturdubooks.wordpress.com

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾

ونادراً (وثالثها) أن وقت الضحى وقت حركة الناس وتعارفهم فصارت نظير وقت الحشر ، والليل إذا سكن نظير سكون الناس فى ظلمة القبور ، فكلاهما حكمة ونعمة لكن الفضيلة للحياة على الموت ، ولما بعد الموت على ماقبله ، فلهذا السبب قدم ذكر الضحى على ذكر الليل (ورابعها) ذكروا الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه ، ثم عقبه بالليل حتى لايحصل الأمن من مكره .

﴿ السؤال الخامس ﴾ هل أحد من المذكرين فسر الضحى بوجه محمد والليل بشعره ؟ (والجواب) نعم ولا استبعاد فيه ومنهم من زاد عليه فقال : والضحى ذكور أهل بيته ، والليل إناثهم ، ويحتمل الضحى رسالته والليل زمان احتباس الوحى ، لأن فى حال النزول حصل الاستئناس وفى زمن الاحتباس حصل الاستيحاش ، ويحتمل والضحى نور علمه الذى به يعرف المستور من الغيوب : والليل عفوه الذى به يستر جميع العيوب . ويحتمل أن الضحى إقبال الإسلام بعد أن كل غريباً والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً ، ويحتمل والضحى كمال العقل ، والليل حال الموت ، ويحتمل أقسم بعلانيتك التى لايرى عليها الخلق عيباً ، وبسرك الذى لا يعلم عليه عالم الغيب عيباً

قوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد : ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقرىء بالتخفيف أى ماتركك ، والتوديع مبالغة فى الوداع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ فى تركك والقلى البغض . يقال قلاه يقليه قلى ومقلية إذا أبغضه ، قال الفراء : يريد وما قلاك ، وفى حذف الكاف وجوه (أحدها) حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى فى ودعك ، ولأن رؤس الآيات بالياء ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف (وثانيها) فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا [قلا] أحد من أصحابك . ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة ، تقريراً لقوله «المرء مع من أحب» .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال المفسرون أبطأ جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال المشركون قد قلاه الله وودعه ، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية ، وقال السدى : أبطأ عليه أربعين ليلة فشكا ذلك إلى خديجة ، فقالت لعل ربك نسيك أو قلاك ، وقيل إن أم جميل امرأة أبى لهب قالت له : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، وروى عن الحسن أنه قال أبطأ على الرسول صلى الله عليه وسلم الوحى ، فقال لخديجة «إن ربى ودعنى وقلانى ، يشكو إليها ، فقالت كلا والذى بعثك بالحق ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك» فنزل (ما ودعك ربك وما قلى) وطعن الأصوليون فى هذه الرواية ، وقالوا أنه لايليق بالرسول ﷺ أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه ، بل يعلم أن عزل النبى عن النبوة غير جائز فى حكمة الله تعالى ، ويعلم أن نزول الوحى يكون بحسب المصلحة ، وربما كان الصلاح تأخيره ، وربما كان خلاف ذلك ، فثبت أن هذا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾

الكلام غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها ، أو ليعرف الناس قدر علمها ، واختلفوا فى قدر مدة انقطاع الوحى ، فقال ابن جريج اثنا عشر يوماً ، وقال الكلبى خمسة عشر يوماً ، وقال ابن عباس خمسة وعشرون يوماً ، وقال السدى ومقاتل أربعون يوماً ، واختلفو فى سبب احتباس جبريل عليه السلام ، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف ، فقال « سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله » فاحتبس عنه الوحى ، وقال ابن زيد : السبب فيه كون جرو فى بيته للحسن والحسين ، فلما نزل جبريل عليه السلام ، عاتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال « أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » وقال جندب بن سفيان : رمى النبى عليه الصلاة بحجر فى إصبعه ، فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

فأبطأ عنه الوحى ، وروى أنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار وههنا سؤالان .

﴿ السؤال الأول ﴾ الروايات التى ذكرتم تدل على أن احتباس الوحى كان عن قلى (قلنا) أقصى ما فى الباب أن ذلك كان تركا للأفضل والأولى ، وصاحبه لا يكون ممقوتاً ولا مبغضاً ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل « ما جئتنى حتى اشتقت إليك ، فقال جبريل : كنت إليك أشوق ولكنى عبداً مأمور » وتلا (وما نتنزل إلا بأمر ربك) .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يحسن من السلطان أن يقول لأعظم الخلق قربة عنده : إنى لا أبغضك تشريفاً له ؟ (الجواب) أن ذلك لا يحسن ابتداء ، لكن الأعداء إذا ألقوا فى الألسنة أن السلطان يبغضه ، ثم تأسف ذلك المقرب فلا لفظ أقرب إلى تشريفه من أن يقول له : إنى لا أبغضك ولا أدعك ، وسوف ترى منزلتك عندى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ، إذ لو كان من عنده لما امتنع .

قوله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾

واعلم أن فى اتصاله بما تقدم وجوهاً (أحدها) أن يكون المعنى أن انقطاع الوحى لا يجوز أن يكون لأنه عزل عن النبوة ، بل أقصى ما فى الباب ، أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة ، وذلك أمارة الموت فكأنه يقال انقطاع الوحى متى حصل دل على الموت ، لكن الموت خير لك . فإن مالك عند الله فى الآخرة خير وأفضل مما لك فى الدنيا (وثانيها) لما نزل (ماودعك ربك) حصل له بهذا تشريف عظيم ، فكأنه استعظم هذا التشريف فقيل له (وللآخرة خير لك من الأولى أى هذا التشريف وإن كان عظيما إلا أن مالك عند الله فى الآخرة خير وأعظم (وثالثها) ما يخطر

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾

ببالى ، وهو أن يكون المعنى وللأحوال الآتية خير لك من الماضية كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز ، ومنصباً إلى منصب ، فيقول : لاتظن أنى قليتك بل تكون كل يوم يأتى فإنى أزيدك منصباً وجلالا ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ بأى طريق يعرف أن الآخرة كانت له خيراً من الأولى ؟ (الجواب) لوجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول له إنك فى الدنيا على خير لأنك تفعل فيها ماتريد ، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل فيها ما نريد (وثانيها) الآخرة خير لك تجتمع عندك أمتك إذ الأمة له كالأولاد قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) وهو أب لهم ، وأمته فى الجنة فيكون كأن أولاده فى الجنة ، ثم سمى الولد قرة أعين ، حيث حكى عنهم (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) (وثالثها) الآخرة خير لك لأنك اشتريتها ، أما هذه ليست لك ، فعلى تقدير أن لو كانت الآخرة أقل من الدنيا لكانت الآخرة خيراً لك ، لأن مملوكك خير لك مما لا يكون مملوكا لك ، فكيف ولا نسبة للآخرة إلى الدنيا فى الفضل (ورابعها) الآخرة خير لك من الأولى لأن فى الدنيا الكفار يطعنون فيك أما فى الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم ، وأجعلك شهيداً على الأنبياء ، ثم أجعل ذاتى شهيداً لك كما قال (وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله) (وخامسها) أن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال (وللآخرة خير لك) ولم يقل خير لكم ؟ (الجواب) لأنه كان فى جماعته من كانت الآخرة شراً له ، فلو أنه سبحانه عمم لكان كذباً ، ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون . ولهذا السبب قال موسى عليه السلام (كلا إن معى ربى سيهدين) وأما محمد ﷺ فالذى كان معه لما كان من أهل السعادة قطعاً ، لاجرم قال (إن الله معنا) إذ لم يكن ثم إلا نبى وصديق ، وروى أن موسى عليه السلام خرج للاستسقاء ، ومعه الألوف ثلاثة أيام فلم يجدوا الإجابة ، فسأل موسى عليه السلام عن السبب الموجب لعدم الإجابة . فقال : لا أجيبكم مادام معكم ساع بالنميمة ، فسأل موسى من هو ؟ فقال : [إنى] أبغضه فكيف أعمل عمله ، فما مضت مدة قليلة حتى نزل الوحى بأن ذلك النمام قدمات ، وهذه جنازته فى مصلى ، كذا فذهب موسى عليه السلام إلى تلك المصلى ، فإذا فيها سبعون من الجنائز ، فهذا ستره على أعدائه فكيف على أوليائه . ثم تأمل فإن فيه دقيقة لطيفة ، وهى أنه عليه السلام قال «لولا شيوخ ركع» وفيه إشارة إلى زيادة فضيلة هذه الأمة ، فإنه تعالى كان يرد الألوف لمذنب واحد ، وههنا يرحم المذنبين لمطيع واحد .

قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ واعلم اتصاله بما تقدم من وجهين (الأول) هو أنه تعالى لما بين أن الآخرة (خير له من الأولى) ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أى حد

www.besturdubooks.wordpress.com

يكون . فبين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت ، وهو أنه ينتهى إلى غاية ما يتمناه الرسول ويرتضيه (الوجه الثانى) كأنه تعالى لما قال (وللآخرة خير لك من الأولى) فقيل ولم قلت إن الأمر كذلك ، فقال لأنه يعطيه كل ما يريده وذلك مما لا تتسع الدنيا له ، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى ، واعلم أنه إن حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على المنافع ، وقد يمكن حمله على التعظيم ، أما المنافع ، فقال ابن عباس : ألف قصر فى الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها ، وأما التعظيم فالمروى عن على بن أبى طالب عليه السلام وابن عباس ، أن هذا هو الشفاعة فى الأمة ، يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال إذاً لا أرضى وواحد من أمتى فى النار ، واعلم أن الحمل على الشفاعة متعين ، ويدل عليه وجوه (أحدها) أنه تعالى أمره فى الدنيا بالاستغفار فقال (استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة ، ومن طلب شيئاً فلا شك أنه لايريد الرد ولا يرضى به وإنما يرضى بالإجابة ، وإذا ثبت أن الذى يرضاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإجابة لا الرد ، ودلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كل مايرتضيه . علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة فى حق المذنبين (والثانى) وهوأن مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول لاأودعك ولا أبغضك بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلباً لمرضاتك وتطييباً لقلبك ، فهذا التفسير أوفق لمقدمة الآية (والثالث) الأحاديث الكثيرة الواردة فى الشفاعة دالة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام فى العفو عن المذنبين ، وهذه الآية دلت على أنه تعالى يفعل كل مايرضاه الرسول فتحصل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة ، وعن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : رضاء جدى أن لايدخل النار موحد ، وعن الباقر ، أهل القرآن يقولون : أرجى آية قوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) وإنا أهل البيت نقول أرجى آية قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) والله إنها الشفاعة ليعطاها فى أهل لا إله إلا الله حتى يقول رضيت ، هذا كله إذا حملنا الآية على أحوال الآخرة ، أما لو حملنا هذا الوعد على أحوال الدنيا فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس فى الدين أفواجاً ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن ، و[ما] هدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف فى أهل الشرق والغرب من الرعب وتهييب الإسلام وفشو الدعوة ، واعلم أن الأولى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ لم لم يقل يعطيكم مع أن هذه السعادات حصلت للمؤمنين أيضاً ؟ (الجواب) لوجوه : (أحدها) أنه المقصود وهم أتباع (وثانيها) أنى إذا أكرمت أصحابك فذاك فى الحقيقة إكرام لك ، لأنى أعلم أنك بلغت فى الشفقة عليهم إلى حيث تفرح بإكرامهم فوق

www.besturdubooks.wordpress.com

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾

ما تفرح بإكرام نفسك ، ومن ذلك حيث تقول الأنبياء : نفسى نفسى ، أى أبدأ بجزائى وثوابى قبل أمتى ، لأن طاعتى كانت قبل طاعة أمتى ، وأنت تقول : أمتى أمتى ، أى أبدأ بهم ، فإن سرورى أن أراهم فائزين بثوابهم (وثالثها) أنك عاملتنى معاملة حسنة ، فإنهم حين شجوا وجهك ، قلت «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» وحين شغلوك يوم الخندق عن الصلاة ، قلت « اللهم املأ بطونهم ناراً » فتحملت الشجة الحاصلة فى وجه جسدك ، وما تحملت الشجة الحاصلة فى وجه دينك ، فإن وجه الدين هو الصلاة ، فرجحت حقى على حقك ، لاجرم فضلتك ، فقلت من ترك الصلاة سنين ، أو حبس غيره عن الصلاة سنين لا أكفره ، ومن آذى شعرة من شعراتك ، أو جزء من نعلك أكفره .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الفائدة فى قوله (ولسوف) ولم لم يقل : وسيعطيك ربك ؟ (الجواب) فيه فوائد (إحداها) أنه يدل على أنه ما قرب أجله ، بل يعيش بعد ذلك زماناً (وثانيها) أن المشركين لما قالوا : ودعه ربه وقلاه فالله تعالى رد عليهم بعين تلك اللفظة ، فقال (ما ودعك ربك وما قلى) ثم قال المشركون : سوف يموت محمد ، فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف يقول الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ؟ (الجواب) هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام جبريل عليه السلام معه ، لأنه كان شديد الاشتياق إليه وإلى كلامه كما ذكرنا ، فأراد الله تعالى أن يكون هو المخاطب له بهذه البشارات .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟ (الجواب) قال صاحب الكشاف هى لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك ربك والدليل على ما قلنا أنها إما أن تكون لام القسم ، أو لام الابتداء ، ولام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد ، فبقى أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لاتدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر ، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف يعطيك ، فإن قيل ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير ؟ قلنا معناه : أن العطاء كائن لا محالة ، وإن تأخر لما فى التأخير من المصلحة .

قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول (ألم يجدك يتيما) فقال الرسول بلى يارب ، فيقول . انظر [أ] كانت طاعاتك فى ذلك الوقت أكرم أم الساعة ؟ فلابد من أن يقال بل الساعة فيقول الله : حين كنت صبياً ضعيفاً ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفاً على

www.besturdubooks.wordpress.com

شرفات العرش وقلنا لك ، لولاك ما خلقنا الأفلاك ، أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (ألم يجدك) من الوجود الذى بمعنى العلم ، والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله ، والمعنى ألم يعلمك الله يتيما فآوى ، وذكروا فى تفسير اليتيم أمرين (الأول) أن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار توفى وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، ثم ولد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين . وكان عبد المطلب يوصى أبا طالب به لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فكان أبو طالب هو الذى يكفل رسول الله بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة ، فقام بنصرته مدة مديدة ، ثم توفى أبو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يتم البتة فأذكره الله تعالى هذه النعمة ، روى أنه قال أبو طالب يوماً لأخيه العباس : ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه ؟ فقال بلى فقال إنى ضممته إلى فكيف لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ، ولا آتمن عليه أحداً حتى أنى كنت أنومه فى فراشى ، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معى ، فرأيت الكراهة فى وجهه لكنه كره أن يخالفنى ، وقال : ياعماه اصرف بوجهك عنى حتى أخلع ثيابى إذ لا ينبغى لأحد أن ينظر إلى جسدى ، فتعجبت من قوله وصرفت بصرى حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بينى وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشى فإذا هو فى غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس فى المسك ، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفتقده من فراشى فإذا قمت لأطلبه نادانى ها أنا ياعم فأرجع ، ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبنى وذلك عند مضى الليل وكنا لانسمى على الطعام والشراب ولا نحمده بعده ، وكان يقول فى أول الطعام : بسم الله الأحد . فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله ، فتعجبت منه ، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون .

واعلم أن العجائب المروية فى حقه من حديث بحيرى الراهب وغيره مشهورة .

﴿ التفسير الثانى لليتيم ﴾ أنه من قولهم درة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحداً فى قريش عديم النظير فآواك ؟ أى جعل لك من تأوى إليه وهو أبو طالب ، وقرىء فأوى وهو على معنيين : إما من أواه بمعنى آواه ، وإما من أوى له إذا رحمه ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف يحسن من الجود أن يمن بنعمة ، فيقول (ألم يجدك يتيما فآوى) ؟ والذى يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال (ألم نربك فينا وليداً) فى معرض الذم لفرعون ، فما كان مذموماً من فرعون كيف يحسن من الله ؟ (الجواب) أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوى قلبه ويعده بدوام النعمة ، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون ، لأن امتنان فرعون محبط ، لأن الغرض فما بالك لا تخدمنى ، وامتنان الله بزيادة نعمه ، كأنه يقول : مالك تقطع عنى رجاءك ألست شرعت فى تربيتك ، أتظننى تاركا لما صنعت ، بل لا بد

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾

وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة ، كما قال (ولأتم نعمتي عليكم) أما علمت أن الحامل التى تسقط الولد قبل التمام معيبة ترد ، ولو أسقطت أو الرجل أسقط عنها بعلاج تجب الغرة وتستحق الذم ، فكيف يحسن ذلك من الحى القيوم ، فما أعظم الفرق بين مان هو الله ، وبين مان هو فرعون ، ونظيره ما قاله بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) فى تلك الأمة ، وفى أمة محمد (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) فشتان بين أمة رابعهم كلبهم ، وبين أمة رابعهم ربهم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه تعالى من عليه بثلاثة أشياء ، ثم أمره بأن يذكر نعمة ربه ، فما وجه المناسبة بين هذه الأشياء ؟ (الجواب) وجه المناسبة أن نقول قضاء الدين واجب ، ثم الدين نوعان مالى وإنعامى (والثانى) أقوى وجوباً ، لأن المالى قد يسقط بالإبراء (والثانى) يتأكد بالإبراء ، والمالى يقضى مرة فينجو الإنسان منه (والثانى) يجب عليك قضاؤه طول عمرك ، ثم إذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك ، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم ، فكأن العبد يقول : إلهى أخرجتنى من العدم إلى الوجود بشراً سوياً ، طاهر الظاهر نجس الباطن ، بشارة منك أنك تستر على ذنوبى بستر عفوك ، كما سترت نجاستى بالجلد الظاهر ، فكيف يمكننى قضاء نعمتك التى لا حد لها ولا حصر ؟ فيقول تعالى الطريق إلى ذلك أن تفعل فى حق عبيدى ما فعلته فى حقك ، كنت يتيما فآويتك فافعل فى حق الأيتام ذلك ، وكنت ضالا فهديتك فافعل فى حق عبيدى ذلك ، وكنت (عائلا) فأغنيتك فافعل فى حق عبيدى ذلك ثم إن فعلت كل ذلك فاعلم أنك إنما فعلتها بتوفيقى لك ولطفى وإرشادى ، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم والألطاف .

أما قوله تعالى ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافراً فى أول الأمر ، ثم هداه الله وجعله نبياً ، قال الكلبى (وجدك ضالا) يعنى كافراً فى قوم ضلال فهداك للتوحيد ، وقال السدى كان على دين قومه أربعين سنة ، وقال مجاهد (وجدك ضالا) عن الهدى لدينه واحتجوا على ذلك بآيات أخر منها قوله (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) فهذا يقتضى صحة ذلك منه ، وإذا دلت هذه الآية على الصحة وجب حمل قوله (ووجدك ضالا) عليه ، وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة ، ثم قالت المعتزلة هذا غير جائز عقلا لما فيه من التنفير ، وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلا لأنه جائز فى العقول أن يكون الشخص كافراً فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة ، إلا أن الدليل السمعى قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى (ما ضل صاحبكم وما غوى) ثم ذكروا فى تفسير هذه الآية وجوها كثيرة (أحدها) ما روى عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب (وجدك ضالا) عن معالم النعمة

www.besturdubooks.wordpress.com

وأحكام الشريعة غافلا عنها فهداك إليها ، وهو المراد من قوله (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله (وإن كنت من قبله لمن الغافلين)، (وثانيها) ضل عن مرضعته حليمة حين أرادت أن ترده إلى جده حتى دخلت إلى هبل وشكت ذلك إليه فتساقطت الأصنام ، وسمعت صوتاً يقول : إنما هلاكنا بيد هذا الصبي ، وفيه حكاية طويلة (وثالثها) ما روى مرفوعاً أنه عليه الصلاة والسلام قال « ضللت عن جدى عبد المطلب وأنا صبى ضائع ، كاد الجوع يقتلنى ، فهدانى الله » ذكره الضحاك ، وذكر تعلقه بأستار الكعبة ، وقوله :

يا رب رد ولدى محمداً اردده ربى واصطنع عندى يداً

فمازال يردد هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة وبين يديه محمد وهو يقول : لا ندرى ما ذا نرى من ابنك ، فقال عبد المطلب ولم؟ قال إنى أنخت الناقة وأركبته من خلفى فأبت الناقة أن تقوم ، فلما أركبته أمامى قامت الناقة ، كأن الناقة تقول يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدى ! وقال ابن عباس رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه (ورابعها) أنه عليه السلام لما خرج مع غلام خديجة ميسرة أخذ كافر بزمام بعيره حتى ضل ، فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام فى صورة آدمى ، فهداه إلى القافلة ، وقيل إن أبا طالب خرج به إلى الشأم فضل عن الطريق فهداه الله تعالى (وخامسها) يقال ضل الماء فى اللبن إذا صار مغموراً ، فمعنى الآية كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى أظهرت دينه (وسادسها) العرب تسمى الشجرة الفريدة فى الفلاة ضالة ، كأنه تعالى يقول كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت ، فأنت ، شجرة فريدة فى مفازة الجهل فوجدتك ضالا فهديت بك الخلق ، ونظيره قوله عليه السلام « الحكمة ضالة المؤمن » (وسابعها) ووجدك ضالا عن معرفة الله تعالى حين كنت طفلا صبياً ، كما قال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة ، والمراد من الضال الخالى عن العلم لا الموصوف بالاعتقاد الخطأ (وثامنها) كنت ضالا عن النبوة ما كنت تطمع فى ذلك ولا خطر شىء من ذلك فى قلبك ، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة فى بنى إسرائيل فهديتك إلى النبوة التى ما كنت تطمع فيها البتة (وتاسعها) أنه قد يخاطب السيد ، ويكون المراد قومه فقوله (ووجدك ضالا) أى وجد قومك ضلالا ، فهداهم بك وبشرعك (وعاشرها) وجدك ضالا عن الضالين منفرداً عنهم مجانباً لدينهم ، فكلما كان بعدك عنهم أشد كان ضلالهم أشد ، فهداك إلى أن اختلطت بهم ودعوتهم إلى الدين المبين (الحادى عشر) وجدك ضالا عن الهجرة ، متحيراً فى يد قريش متمنياً فراقهم وكان لا يمكنك الخروج بدون إذنه تعالى ، فلما أذن له ووافقه الصديق عليه وهداه إلى خيمة أم معبد ، وكان ما كان من حديث سراقه ، وظهور القوة فى الدين كان ذلك المراد بقوله (فهدى) ، (الثانى عشر) ضالا عن القبلة ، فانه كان يتمنى أن تجعل الكعبة قبلة له

www.besturdubooks.wordpress.com

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

وما كان يعرف أن ذلك هل يحصل له أم لا ، فهداه الله بقوله (فلنولينك قبلة ترضاها) فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال (الثالث عشر) أنه حين ظهرها له جبريل عليه السلام فى أول أمره ما كان يعرف أهو جبريل أم لا ، وكان يخافه خوفاً شديداً ، وربما أراد أن يلقى نفسه من الجبل فهداه الله حتى عرف أنه جبريل عليه السلام (الرابع عشر) الضلال بمعنى المحبة كما فى قوله (إنك لفى ضلالك القديم) أى محبتك ، ومعناه أنك محب فهديتك إلى الشرائع التى بها تتقرب إلى خدمة محبوبك (الخامس عشر) ضالا عن أمور الدنيا لاتعرف التجارة ونحوها ، ثم هديتك حتى ربحت تجارتك ، وعظم ربحت حتى رغبت خديجة فيك ، والمعنى أنه ما كان لك وقوف على الدنيا ، وما كنت تعرف سوى الدين ، فهديتك إلى مصالح الدنيا بعد ذلك (السادس عشر) (ووجدك ضالا) أى ضائما فى قومك ؛ كانوا يؤذونك ، ولا يرضون بك رعية ، فقوى أمرك وهداك إلى أن صرت آمراً والياً عليهم (السابع عشر) كنت ضالا ما كنت تهتدى على طريق السموات فهديتك إذ عرجت بك إلى السموات ليلة المعراج (الثامن عشر) ووجدك ضالا أى ناسياً لقوله تعالى (أن تضل إحداهما) فهديتك أى ذكرتك ، وذلك أنه ليلة المعراج نسى مايجب أن يقال بسبب الهيبة ، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال (لا أحصى ثناء عليك) (التاسع عشر) أنه وإن كان عارفاً بالله بقلبه إلا أنه كان فى الظاهر لا يظهر لهم خلافاً ، فعبر عن ذلك بالضلال (العشرون) روى على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، فإنى قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معى بأعلى مكة ، لو حفظت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشبان ، فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقالوا فلان ابن فلان يزوج بفلانة ، فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال فجئت صاحبى ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله تعالى برسالته » .

قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ فقيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العائل هو ذو العيلة ، وذكرنا ذلك عند قوله (أن لاتعولوا) ويدل عليه قوله تعالى (وإن خفتم عيلة) ثم أطلق العائل على الفقير ، وإن لم يكن له عيال ، وههنا فى تفسير العائل قولان :

﴿ الأول ﴾ وهو المشهور أن المراد هو الفقير ، ويدل عليه ماروى أنه فى مصحف عبد الله

www.besturdubooks.wordpress.com

(ووجدك عديماً) وقرىء عيلا كما قرىء سيحات(١) ، ثم فى كيفية الإغناء وجوه (الأول) أن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب ، ولما اختلت أحوال أبى طالب أغناه [الله] بمال خديجة ، ولما اختل ذلك أغناه [الله] بمال أبى بكر ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ، ثم أمره بالجهاد ، وأغناه بالغنائم ، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة ، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع ، روى أنه عليه السلام « دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت له مالك ، فقال الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحى منك ، وإن لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى لكثرة المال ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه ، وإن شاء أمسكه » (الثانى) أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سراً حتى قال عمر حين أسلم : ابرز أتعبد اللات جهراً ونعبد الله سراً ! فقال عليه السلام : حتى تكثر الأصحاب ، فقال حسبك الله وأنا فقال تعالى (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) فأغناه الله بمال أبى بكر ، وبهيبة عمر » (الثالث) أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوى عندك الحجر والذهب ، لا تجد فى قلبك سوى ربك ، فربك غنى عن الأشياء لا بها ، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء ، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشيء لا به ، ومن ذلك أنه عليه السلام خير بين الغنى والفقر ، فاختار الفقر (الرابع) كنت عائلا عن البراهين والحجج ، فأنزل الله عليك القرآن ، وعلمك مالم تكن تعلم فأغناك .

﴿ القول الثانى فى تفسير العائل ﴾ أنت كنت كثير العيال وهم الأمة ، فكفاك . وقيل فأغناهم بك لأنهم فقراء بسبب جهلهم ، وأنت صاحب العلم ، فهداهم على يدك ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الحكمة فى أنه تعالى اختار له اليتم ؟ (قلنا) فيه وجوه (أحدها) أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم ، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع . فقيل له فى ذلك ، فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجياع (وثانيها) ليكون اليتيم مشاركا له فى الإسم فيكرم لأجل ذلك ، ومن ذلك قال عليه السلام « إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ، ووسعوا له فى المجلس » (وثالثها) أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما ، فسلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله ، فيصير فى طفوليته متشبهاً بإبراهيم عليه السلام فى قوله : حسبى من سؤالى ، علمه بحالى ، وكجواب مريم (أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله) . (ورابعها) أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر ، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتيم ، ليتأمل كل أحد فى أحواله ، ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته ، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً (وخامسها) جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذى له أب ، فإن أباه يسعى فى تعليمه وتأديبه (وسادسها) أن اليتم والفقر نقص فى حق

(١) هكذا فى الأصل ولعله يعنى قرىء (ووجدك عيلا) تشديد الياء مع كسرها كما قرىء (سيحات) كذلك فى قوله تعالى (سائحات) . والله أعلم

www.besturdubooks.wordpress.com

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾

الخلق ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام ، مع هذين الوصفين أكرم الخلق ، كان ذلك قلباً للعادة ، فكان من جنس المعجزات .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما الحكمة فى أن الله ذكر هذه الأشياء ؟ (الجواب) الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع فى العجب ،

﴿السؤال الثالث﴾ روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «سألت ربى مسألة وددت أنى لم أسألها ، قلت : اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وسخرت مع داود الجبال ، وأعطيت سليمان كذا وكذا ، وأعطيت فلاناً كذا وكذا ، فقال : ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ قلت بلى (فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ قلت بلى ، قال : ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى ! قال ألم أصرف عنك وزرك ؟ قلت بلى ألم أوتك مالم أوت نبياً قبلك وهى خواتيم سورة البقرة ؟ ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا ؟ » فهل يصح هذا الحديث (قلنا) طعن القاضى فى هذا الخبر فقال إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن ، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال . ويكون منه تعالى ما يجرى مجرى المعاتبة .

قوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ وقرىء فلا تكهر ، أى لا تعبس وجهك إليه ، والمعنى عامله بمثل ما عاملك به ، ونظيره من وجه (وأحسن كما أحسن الله إليك) ومنه قوله عليه السلام « الله الله فيمن ليس له إلا الله » (وروى) أنها نزلت حين صاح النبى صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ومنه حديث موسى عليه السلام حين « قال إلهى بم نلت مانلت ؟ قال أتذكر حين هربت منك السخلة ، فلما قدرت عليها قلت أتعبت نفسك ثم حملتها . فلهذا السبب جعلتك ولياً على الخلق ، فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم ، و إذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح أو العبوسية فى الوجه ، فكيف إذا أذله أو أكل ماله ، عن أنس عن النبى عليه الصلاة والسلام « إذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كف الرحمن ، ويقول تعالى : من أبكى هذا اليتيم الذى واريت والده فى التراب ، من أسكته فله الجنة » .

قوله تعالى : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره ، وفى المراد من السائل قولان (أحدهما) وهو اختيار الحسن أن المراد منه من يسأل العلم ونظيره من وجه (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى) وحينئذ يحصل الترتيب ، لأنه تعالى قال له أولا (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى) ثم اعتبر هذا الترتيب ، فأوصاه برعاية حق اليتيم ، ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية ، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

(والقول الثانى) أن المراد مطلق السائل ولقد عاتب الله رسوله فى القرآن فى شأن الفقراء فى ثلاثة مواضع (أحدها) أنه كان جالساً وحوله صناديد قريش ، إذ جاء ابن أم مكتوم الضرير ، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه ، وقال علمنى مما علمك الله ، فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل (عبس وتولى) ، (والثانى) حين قالت له قريش لو جعلت لنا مجلساً وللفقراء مجلساً آخر فهم أن يفعل ذلك فنزل قوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) ، (والثالث) كان جالساً فجاءه عثمان بعذق من تمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب ، فقال رحم الله عبداً يرحمنا ، فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك ، وأراد أن يأكله النبي عليه السلام فخرج واشتراه من السائل ، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات ، وكان يعطيه النبى عليه السلام إلى أن قال له النبى صلى الله عليه وسلم أسائل أنت أم بائع ؟ فنزل (وأما السائل فلا تنهره) .

قوله تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ وفيه وجوه (أحدها) قال مجاهد تلك النعمة هى القرآن ، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عليه السلام ، والتحديث به أن يقرأه ويقرىء غيره ويبين حقائقه لهم (وثانيها) روى أيضاً عن مجاهد أن تلك النعمة هى النبوة ، أى بلغ ما أنزل إليك من ربك (وثالثها) إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل ، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدى بك غيرك ، ومنه ما روى عن الحسين بن على عليه السلام أنه قال : إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك ، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء ، وظن أن غيره يقتدى به ، ومن ذلك لما سئل أمير المؤمنين على عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم ، فقالوا له فحدثنا عن نفسك فقال مهلا ، فقد نهى الله عن التزكية فقيل له أليس الله تعالى يقول (وأما بنعمة ربك فحدث) فقال فانى أحدث ، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت ، وبين الجوانح علم جم فاسألونى ، فإن قيل فما الحكمة فى أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) كأنه يقول أنا غنى وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى (وثانيها) أنه وضع فى حظهما الفعل ورضى لنفسه بالقول (وثالثها) أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب فى ذكر الله تعالى ، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله ، واختار قوله (فحدث) على قوله فخبر ، ليكون ذلك حديثا عنده لاينساه ، ويعيده مرة بعد أخرى ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿ تم الجزء الحادى والثلاثون ويتلوه الجزء الثانى والثلاثون ﴾

وأوله تفسير سورة الإنشراح

www.besturdubooks.wordpress.com

٩٣ – سورة الضحى
(مكية وهى إحدى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ ٩٣ الضحى

وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ٩٣ الضحى

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ٩٣ الضحى

وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ٩٣ الضحى

﴿ سورة الضحى مكية وآيها إحدى عشرة ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (والضحى) هو وقت ارتفاع الشمس وصدر النهار قالوا تخصيصه ١
بالإقسام به لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجداً لقوله تعالى وأن يحشر
الناس ضحى وقيل أريد به النهار كما فى قوله تعالى أن يأتيهم بأسنا ضحى فى مقابلة بياتاً (والليل) أى جنس ٢
الليل (إذا سجى) أى سكن أهله أو ركد ظلامه من سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه ونقل عن *
قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد بالضحى هو الضحى الذى كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام
وبالليل ليلة المعراج وقوله تعالى (ما ودعك ربك) جواب القسم أى ماقطعك قطع المودع وقرىء ٣
بالتخفيف أى ماتركك (وما قلى) أى وما أبغضك وحذف المفعول إما للاستغناء عنه بذكره من قبل أو *
للقصد إلى نفى صدور الفعل عنه تعالى بالكلية مع أن فيه مراعاة للفواصل . روى أن الوحى تأخر عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما لترك الاستثناء كما مر فى سورة الكهف أو لزجره سائلا ملحاً فقال
المشركون إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت رداً عليهم وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالكرامة
الحاصلة والمترقبة كما يشعر به إيراد اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى
ضميره عليه الصلاة والسلام وحيث تضمن ما سبق من نفى التوديع والقلى أنه تعالى يواصله بالوحى
والكرامة فى الدنيا بشره عليه الصلاة والسلام بأن ما سيؤتيه فى الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل
(وللآخرة خير لك من الأولى) لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة ٤
بالمضار وما أوتى عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ٩٣ الضحىٰ

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ٩٣ الضحىٰ

لكنه لا يخلو فى الدنيا من بعض العوارض القادحة فى تمشية الأحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلاة فى الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون أمته شهداء على سائر الأمم ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته وغير ذلك من الكرامات السنية التى لا تحيط بها العبارة بمنزلة بعض المبادى بالنسبة إلى المطالب وقيل المراد بالآخرة عاقبة أمره عليه الصلاة والسلام أى لنهاية أمرك خير من بدايته لاتزال تتزايد قوة
٥ وتتصاعد رفعة وقوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية وفشو الدعوة والإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ولما ادخر له من الكرامات التى لايعلمها إلا الله تعالى وقد أنبأ ابن عباس رضى الله عنهما عن شمة منها حيث قال له عليه الصلاة والسلام فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك واللام للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك الخ لا للقسم لأنها لاتدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لامحالة وإن تراخى لحكمة وقيل هى للقسم وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النحاة منها صورتين إحداهما أن يفصل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس كهذه الآية وكقوله والله لسأعطيك والثانية أن يفصل بينهما بمعمول الفعل كقوله تعالى لإلى الله تحشرون وقال أبو على الفارسى ليست هذه اللام هى التى فى قولك إن زيداً لقائم بل هى التى فى قولك لأقومن ونابت سوف عن إحدى نونى التأكيد فكأنه قيل وليعطينك وكذلك اللام فى قوله
٦ تعالى وللآخرة الخ وقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى) تعديد لما أفاض عليه عليه الصلاة والسلام من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبه وينشرح صدره والهمزة لإنكار النفى وتقرير المنفى على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ والوجود بمعنى العلم ويتيما مفعوله الثانى وقيل بمعنى المصادقة ويتيما حال من مفعوله . روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك أيواؤه وقرىء فأوى وهو إما من أواه بمعنى آواه أو من أوى له إذا
٧ رحمه وقوله تعالى (ووجدك ضالا) عطف على مايقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفى بلم داخل فى حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التى لا تهتدى

وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ٩٣ الضحىٰ

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ٩٣ الضحىٰ

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ٩٣ الضحىٰ

إليها العقول كما فى قوله تعالى ما كانت تدرى ماالكتاب وقيل ضل فى صباه فى بعض شعاب مكة فرده
أبو جهل إلى عبد المطلب وقيل ضل مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً
وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا منادياً ينادى من السماء يامعشر الناس لاتضجوا فإن لمحمد رباً لايخذله
ولايضيعه وإن محمداً بوادى تهامة عند شجر السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فإذا النبى صلى
الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة
حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب وقيل ضل فى طريق الشام حين خرج به أبو طالب .
يروى أن إبليس أخذ بزمام ناقته فى ليلة ظلماء فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ
إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ورده إلى القافلة (فهدى) فهداك إلى مناهج الشرائع المنطوية
فى تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك مالم تكن تعلم أو أزال ضلالك عن جدك أو
٨ عمك (ووجدك عائلا) أى فقيراً وقرىء عيلا وقرىء عديماً (فأغنى) فأغناك بمال خديجة أو بمال
حصل لك من ربح التجارة أو بمال أفاء عليك من الغنائم قال عليه الصلاة والسلام جعل رزقى تحت
٩ ظل رمحى وقيل قنعك وأغنى قلبك (فأما اليتيم فلاتقهر) فلا تغلبه على ماله وقال مجاهد لاتحتقر وقرىء
١٠ فلا تكهر أى فلا تعبس فى وجهه (وأما السائل فلا تنهر) فلا تزجر ولا تغلظ له القول بل رده رداً
جميلا قال إبراهيم بن أدهم نعم القول السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النخعى السائل
يريد الآخرة يجىء إلى باب أحدكم فيقول أتبعثون إلى أهليكم بشىء وقيل المراد بالسائل ههنا الذى
١١ يسأل عن الدين (وأما بنعمة ربك فحدث) بشكرها وإشاعتها وإظهاراً آثارها وأحكامها أريد بها ما أفاضه
الله تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من فنون النعم التى من جملتها النعم المعدودة الموجودة منها والموعودة
والمعنى إنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك الله تعالى وهداك وأغناك فمهما يكن من شىء فلاتنس حقوق
نعمة الله تعالى عليك فى هذه الثلاث واقتد بالله تعالى وأحسن كما أحسن الله إليك فتعطف على اليتيم فآوه
وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولاتزجره عن بابك وحدث بنعمة الله كلها وحيث كان معظمها
نعمة النبوة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه الصلاة والسلام للضلال وتعليمه للشرائع والأحكام
حسبما هداه الله عز وجل وعلمه من الكتاب والحكمة . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة
الضحى جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل .

سورة الضحى

مكية وآيها احدى عشرة آية بلا خلاف ولما ذكر سبحانه فيما قبلها وسيجنبها الاتقى وكان سيد الاتقين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عقب سبحانه ذلك بذكر نعمه عز وجل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وقال الامام لما كانت الاولى سورة أبي بكر رضي الله تعالى عنه وهذه سورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عقب جل وعلا بها ولم يجعل بينهما واسطة ليعلم أن لا واسطة بين رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والصديق رضي الله تعالى عنه وتقديم سورة الصديق على سورته عليه الصلاة والسلام لا يدل على أفضليته منه صلى الله تعالى عليه وسلم ألا ترى أنه تعالى أقسم أولا بشيء من مخلوقاته سبحانه ثم أقسم بنفسه عز وجل في عدة مواضع منها السورة السابقة على ماعلمت والخدم قد تتقدم بين يدى السادة وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ولا يضر النور تأخره عن أغصانه ولا السنان كونه في أطراف مرانه ثم أن ما ذكره زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * وَالضُّحَى ﴾ تقدم الكلام فيه والمراد به هنا وقت ارتفاع الشمس الذى يلى وقت بروزها للناظرين دون ضوئها وارتفاعها لانه أنسب بما بعد وتخصيصه بالاقسام به لانه شباب النهار وقوله فيه قوة غير قريبة من ضدها . ولذ عد شرفا يومياً للشمس وسعدا ولانه على ما قالوا الساعة التى كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام والقى فيه السحرة سجدا لقوله تعالى وأن يحشر الناس ضحى ففيه مناسبة للمقسم عليه وهو انه تعالى لم يترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يفارقه الطافه تعالى وتكليمه سبحانه وقيل المراد به النهار كما في قوله تعالى أن يأتيهم باسنا ضحى واعترض بالفرق فانه وقع هناك في مقابلة البيات وهو مطلق الليل وهنا في مقابلة الليل مقيدا معنى باشتداد ظلمته فالمناسب أن يراد به وقت ارتفاعه وقوة اضاءته وأجيب بمنع دلالة القيد على الاشتداد وستسمع ان شاء الله تعالى ما في ذلك وأيا ما كان فالظاهر أن المراد الجنس أى وجنس الضحى ﴿ وَالَّيْلِ ﴾ أى وجنس الليل ﴿ إِذَا سَجَى ﴾ أى سكن أهله على انه من السجو وهو السكون مطلقا كما قال غير واحد والاسناد مجازى أو هو على تقدير المضاف كما قيل ونحوه ماروى عن قتادة أى سكن الناس والاصوات فيه وهذا يكون في الغالب فيما بين طرفيه أو بعد مضى برهة من أوله أو ركد ظلامه من سجا البحر سكنت أمواجه قال الاعشى

www.Quranpdf.blogspot.in

وما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم ✡ وبحرك ساج لايوارى الدعامصا

فالسجو قيل على هذا في الاصل سكون الامواج ثم عم والمراد بسكون ظلامه عدم تغيره بالاشتداد والتنزل أي فيما يحس ويظهر وذلك اذا كمل حسا بوصول الشمس الى سمت القدم وقبيله وبعيده وصرح باعتبار الاشتداد ابن الاعرابي حيث قال سجا الليل اشتد ظلامه وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه قال أي اذا أقبل فغطى كل شيء وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس تفسير سجا باقبل بدون ذكر التغطية وأخرجاها وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا أنه قال سجا اذا ذهب وكلا التفسيرين خلاف المشهور وشاع ليل ساكن اوساج لما لا ريح فيه ووصفه بذلك أعني السكون قيل على الحقيقة كما اذا قيل ليل لا ريح فيه ولا يقال ان الساكن هو الريح بالحقيقة لان السكون عليها حقيقة محال لانه هواء متحرك ثم انهم يقولونه لما لاريح فيه لا لما سكن ريحه والتحقيق أن يقال ان السكون على تفسيريه أعني عدم الحركة عما من شأنه الحركة أو كونين في حيز واحد لايصح على الليل لانه زمان خاص لكن لما كان سكون الهواء بمنزلة عدم له في العرف العامي لعدم الاحساس او لتضمنه عدم الريح لاالهواء قيل ليل ساج وساكن وصف الليل على الحقيقة أي لا اسناد فيه الى غير ملائم على انه يحتمل ان يجعل السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية وجوز حمل مافي الآية على هذا الشائع ولعل التقييد بذلك لان الليل الذي لاريح فيه أبعد عن الغوائل وقد ذكر بعض الفقهاء ان الريح الشديدة ليلا عذر من أعذار الجماعة ونقل عن قتادة ومقاتل ان المراد بالضحى هو الضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج ومن الناس من فسر الضحى بوجهه صلى الله تعالى عليه وسلم والليل بشعره عليه الصلاة والسلام كما ذكر الامام وقال لا استبعاد فيه وهو كما ترى ومثله ما قيل الضحى ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام اناثهم وقال الامام يحتمل أن يقال الضحى رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم والليل زمان احتباس الوحي فيه لان في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمان الاحتباس حصل الاستيحاش أو الضحى نور علمه تعالى الذي يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه تعالى الذي به يستر جميع العيوب أو الضحى اقبال الاسلام بعد ان كان غريبا والليل اشارة الى أنه سيعود غريبا أو الضحى كمال العقل والليل حال الموت أو الضحى علانيته عليه الصلاة والسلام التي لا يرى الخلق عليها عيبا والليل سره صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعلم عالم الغيب عليها عيبا انتهى ولايخفى أنه ليس من التفسير في شيء وباب التأويل والاشارة يدخل فيه أكثر من ذلك وتقديم الضحى على الليل بناء على ما قلنا أولا لرعاية شرفه لما فيه من ظهور زيادة النور وللنور شرف ذاتي على الظلمة لكونه وجوديا أو لكثرة منافعه أو لمناسبته لعالم الملائكة فانها نورانية وتقديم الليل في السورة السابقة لما فيه من الظلمة التي هي لعدميتها أصل للنور الحادث بازالتها لاسباب حادثة وقيل تقديمه هناك لان السورة في أبي بكر وهو قد سبقه كفر وتقديم الضحى هنا لان السورة في رسول الله عليه الصلاة و السلام وهو صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسبقه ذلك وتخصيصه تعالى الوقتين بالاقسام قيل ليشير سبحانه بحالهما الى حال ما وقع له عليه الصلاة والسلام ويؤيد عزوجل نفي ما توهم فيه فكأنه تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ساعة ليل وساعة نهار ثم تارة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار وأخرى بالعكس فلا الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى بل لكل لحكمة وكذا أمر الوحي مرة انزال وأخرى حبس فلا كان الانزال عن هوى ولا الحبس عن قلى بل لكل لحكمة وقيل ليسلي عزوجل بحالهما حبيبه عليه الصلاة والسلام كأنه سبحانه يقول انظر الى هذين المتجاورين لا يسلم أحدهما من الآخر بل الليل يغلب تارة والنهار أخرى فكيف تطمع أن تسلم من الخلق والقولان مبنيان على أن المراد بالضحى

www.Quranpdf.blogspot.in

النهار كله وبالليل اذا سجى جميع الليل وتخصيص الضحى على ما سمعت اولما سمعت وتخصيص الليل بناء على أن المراد وقت اشتداد الظلمة قيل لانه وقت خلو المحب بالمحبوب والامن من كل واش ورقيب وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه في ذلك أنه تعالى أقسم له صلى الله تعالى عليه وسلم بوقتين فيهما صلاته عليه الصلاة والسلام التى جعلت قرة عينه وسبب مزيد قربه وأنسه أما الضحى فلما رواه الدار قطني في المجتبى عن ابن عباس مرفوعا كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها وأما الليل فلقوله تعالى ومن الليل فتهجد به نافلة لك ارغاما لاعدائه وتكذيبا لهم في زعم قلاه وجفائه فكأنه قيل وحق قربك لدينا وزلفاك عندنا انا أصطفيناك وماهجرناك وقليناك فهو كقوله ✡ وثنايا ك انها اغريض ✡ وهو مما تستطيبه أهل الاذواق ويمكن أن يكون الاقسام بالليل على ما نقل عن قتادة من باب وثنايا ك أيضا وكذا الاقسام بهما على بعض الاوجه المارة كما لا يخفى وعلى كون المراد بالضحى الوقت المعروف من النهار وبالليل جميعه قيل ان التفرقة الاشارة الى ان ساعة من النهار توازى جميع الليل كما ان النبى عليه الصلاة والسلام يوازى جميع الانبياء عليهم السلام وللاشارة لكون النهار وقت السرور والليل وقت الوحشة والغم الى أن هموم الدنيا وغمومها أدوم من سرورها وقد روى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت عن يساره غمامة فنادت ماذا أمطر فامرت أن تمطر الغموم والاحزان فامطرت مائة سنة ثم انكشفت فامرت مرة أخرى بذلك وهكذا الى اتمام ثلثمائة سنة ثم أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء فنادت ماذا أمطر فامرت أن تمطر السرور ساعة فلذا ترى الغموم والاحزان أدوم من المسار فى الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ الخ جواب القسم وودع من التوديع وهو فى الاصل من الدعة وهو أن تدعو للمسافر بان يدفع الله تعالى عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة وخفض العيش كما أن التسليم دعاء له بالسلامة ثم صار متعارفا في تشييع المسافر وتركه ثم استعمل في الترك مطلقا وفسر به هنا أي ماتركك ربك وفي البحر والكشاف التوديع مبالغة فى الودع أى الترك لان من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك قيل وعليه يلزم أن يكون المنفى الترك المبالغ فيه دون أصل الترك مع أن الظاهر نفى ذلك فلا بد من أن يقال انه انما نفى ذلك لانه الواقع في كلام المشركين الذى نزلت له الآية أو أن المبالغة تعود على النفى فيكون المراد المبالغة في النفى لا نفى المبالغة وقد ذكروا نظير هذين الوجهين في قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد فتدبر وقيل ان المعنى ماقطعك قطع المودع على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك وفيه من اللطف والتعظيم مالا يخفى فان الوداع انما يكون بين الاحباب ومن تعز مفارقته كما قال المتنبي

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا ✽ فلم أدر أى الظاعنين أشيع

وحقيقة التوديع المتعارف غير متصورة ههنا وتعقب بانه على هذا لايكون ردا لما قاله المشركون لانهم لم يقولوا ودعه ربه على هذا المعنى كيف وهم بمعزل عن اعتقاد كونه عليه الصلاة والسلام بالمحل الذى هو صلى الله تعالى عليه وسلم فيه من ربه سبحانه وقيل في الجواب انه يجوز أن يدل ودعه ربه على ذلك الا انهم قاتلهم الله تعالى قالوه على سبيل التهكم والسخرية وحين رد عليهم قصد مايشعر به اللفظ على التحقيق وقيل ان الترك مطلق فى كلامهم والظاهر من حالهم أنهم لم يريدوا الماهية من حيث هي ولا من حيث تحققها في ضمن مالا يخل بشريف مقامه عليه الصلاة والسلام بل الماهية من حيث تحققها في ضمن مايخل بذلك ولما كان المقصود ايناسه صلى الله تعالى عليه وسلم وازالة وحشته عليه الصلاة والسلام جيء بما يتضمن نفى مازعموه على أبلغ وجه كانه قيل ان هذا

www.Quranpdf.blogspot.in

النوع الغير المخل بمقامك من الترك لم يكن فضلا عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك وعندى أن الظاهر ان ذلك القول باى معنى كان صادر على سبيل التهكم اذا كان المراد بالرب هو الله عز وجل وكان القائل من المشركين كما لايخفى على المتأمل وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبى عبلة ما ودعك بالتخفيف وهي على ماقال ابن جنى قراءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخرجت على ان ودع مخفف ودع ومعناه معناه قال في القاموس ودعه كوضعه وودع بمعنى وقيل ليس بمخففة بل هو فعل برأسه بمعنى ترك وانه يعكر على قول النحاة أماتت العرب ماضى يدع ويذر ومصدرهما واسم فاعلهما واسم مفعولهما واستغنوا بما ليترك من ذلك وفي المغرب ان النحاة زعموا ان العرب أماتت ذلك والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات وقرأ ماودعك وقال أبوالاسود

ليت شعرى عن خليلى ماالذى ✫ غاله في الحب حتى ودعه

ومثله قول آخر وثم ودعنا آل عمرو وعامر ✫ فرائس أطراف المثقفة السمر

وهو دليل أيضاً على استعمال ودع وهو بمعنى ترك المتعلق بمفعولين فلا تغفل وفي الحديث اتركوا الترك ماتركوكم ودعوا الحبشة ماودعوكم وفي المستوفي أن كل ذلك قد ورد فى كلام العرب ولا عبرة بكلام النحاة وأذا جاء نهر الله بطل نهر معقل نعم وروده نادر وقال الطيبى بعد أن ذكر وروده نظماً ونثراً انما حسن هذه القراءة الموافقة بين الكلمتين يعنى هذه وما بعدها كما فى حديث الترك والحبشة لان رد العجز على الصدر وصنعة الترصيع قد جبرا منه وقيل ان القائلين انما قالوا ودعه ربه بالتخفيف فنزلت فيكون المحسن له قصد المشاكلة لما قالوه وهم تكلموا بغير المعروف طيرة منهم كان غير المعروف من اللفظ مما يتشاءم به من الفأل الرديء أوانهم لما قصدوا السخرية حسن استعمال اللفظ وقد قالوا يحسن استعمال الالفاظ الغريبة ونحوها في الهجاء فلا يبعد أن يكون في السخرية كذلك والحق انه بعد ثبوت وروده لايحتاج الى تكلف محسن له والظاهر أن المراد بالرب هو الله عز وجل وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية واضافته الى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم من اللطف مالا يخفى فكانه قيل ماتركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك على سبيل التدريج كما لك اللائق بك ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أى وماأبغضك وحذف المفعول لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وان كانت في كلام منفى لطفا به صلى الله تعالى عليه وسلم وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام أو لنفى صدوره عنه عز وجل بالنسبة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ولاحد من أصحابه ومن أحبه صلى الله تعالى عليه وسلم الى يوم القيامة أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاة للفواصل واللغة المشهورة في مضارع قلى يقلى كيرمى وطيء تقول يقل بفتح العين كيرضى وتفسير القلى بالبغض شائع وفي القاموس من الواوى قلا زيدا قلا وقلاه أبغضه ومن اليائى قلاه كرماه ورضيه قلى وقلاء ومقلية أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه أو قلاه في الهجر وقليه في البغض وفي مفردات الراغب القلى شدة البغض يقال قلاه يقلوه ويقليه فمن جعله من الواوى فهو من القلو أى الرمى من قولهم قلت الناقة براكبها قلوا وقلوت بالقلة فكان المقلو هو الذى يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله ومن جعله من اليائى فمن قليت البسر والسويق على المقلاة انتهى وبينهما مخالفة لاتخفى وعلى اعتبار شدة البغض فالظاهر ان ذلك فى الآية ليس الا لانه الواقع في كلامهم قال المفسرون أبطأ جبريل عليه السلام على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال المشركون قد قلاه ربه وودعه فانزل الله تعالى ذلك وأخرج الحاكم عن زيد ابن أرقم قال لما نزلت تبت يدا أبى لهب الخ قيل لامرأة أبى لهب أم جميل ان محمداً صلى الله تعالى عليه

www.Quranpdf.blogspot.in

وسلم قد هجاك فاتته عليه الصلاة والسلام وهو صلى الله تعالى عليه وسلم جالس في الملأ فقالت يامحمد علام تهجوني قال انى والله ما هجوتك ماهجاك الا الله تعالى فقالت هل رأيتني أحمل حطبا أوفي جيدي حبلا من مسد ثم انطلقت فمكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لاينزل عليه فاتته فقالت ماأرى صاحبك الاقد ودعك وقلاك فانزل الله تعالى ذلك وأخرج الترمذي وصححه وابن أبي حاتم واللفظ له عن جندب البجلي قال رمى صلى الله تعالى عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال ✡ ماأنت الا اصبع دميت ✡ وفي سبيل الله مالقيت ✡ فمكث ليلتين أو ثلاثا لايقوم فقالت له امرأة ما أرى شيطانك الا قد تركك وفي رواية للترمذي أيضا والامام احمد والبخاري ومسلم والنسائي وجماعة بلفظ اشتكى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فانزل الله تعالى والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وما قلى وليس فيه حديث المرأة ولا الحجر والرجز وذلك لا يطعن في صحته وقال جمع من المفسرين أن اليهود سألوه عليه الصلاة والسلام عن اصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام ساخبركم غدا ولم يستثن فاحتبس عنه الوحي فقال المشركون ما قالوا فنزلت وقيل ان عثمان اهدى اليه صلى الله تعالى عليه وسلم عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فاعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه اليه عليه الصلاة والسلام ثانيا ثم عاد السائل فاعطيه وهكذا ثلاث مرات فقال عليه الصلاة والسلام ملاطفا لاغضبان أسائل أنت يافلان ام تاجر فتأخر الوحي اياما فاستوحش فنزلت ولعلهم ايضا قالوا ماقالوا واخرج ابن ابي شيبة في مسنده والطبراني وابن مردويه من حديث خولة وكانت تخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان جروا دخل تحت سرير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمات ولم نشعر به فمكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام لاينزل عليه الوحي فقال ياخولة ماحدث في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل لايأتيني فقلت يانبي الله مااتى علينا يوم خيرمنا اليوم فاخذ برده فلبسه وخرج فقلت في نفسي لوهيأت البيت وكنسته فاهويت بالمكنسة تحت السرير فاذا بشيء ثقيل فلم أزل به حتى بدالي الجرو ميتا فاخذته بيدي فالقيته خلف الدار فجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ترعد لحيته وكان اذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فقال ياخولة دثريني فانزل الله تعالى والضحى والليل الى قوله سبحانه فترضى وهذه الرواية تدل على أن الانقطاع كان أربعة أيام وعن ابن جريج انه كان اثنى عشر يوما وعن الكلبي خمسة عشر يوما وقيل بضعة عشر يوما وعن ابن عباس خمسة وعشرين يوما وعن السدى ومقاتل أربعين يوما وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ولايكاد يعلم على التحقيق إلا منه عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وفي بعض الروايات مايدل على أن قائل ذلك هو النبي عليه الصلاة والسلام فعن الحسن انه قال ابطأ الوحي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لخديجة ان ربي ودعني وقلاني يشكو اليها فقالت كلا والذي بعثك بالحق ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة الا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك فنزلت واستشكل هذا بأنه لا يليق بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يظن ان الله تعالى شأنه ودعه وقلاه وهل الا نحو من العزل وعزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمته عز وجل والنبي عليه الصلاة والسلام أعلم بذلك ويعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا ان ابطاء الوحي وعكسه لا يخلو كل منهما عن مصلحة وحكمة وأجيب بأن مراده عليه الصلاة والسلام ان صح ان يجربها ليعرف قدر علمها أو ليعرف الناس ذلك فقال ما قال صلى الله تعالى عليه وسلم بضرب من التأويل كان يكون قد قصد ان ربي ودعني وقلاني بزعم المشركين أو ان معاملته سبحانه اياي بابطاء الوحي تشبه صورة معاملة المودع والقالي وانت تعلم ان هذه الرواية شاذة لايعول عليها ولا يلتفت اليها فلا ينبغي اتعاب الذهن بتأويلها

www.Quranpdf.blogspot.in

ونحوها ما دل على أن قائل ذاك خديجة رضي الله تعالى عنها أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عروة قال ابطا جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة أرى ربك قد قلاك مما أرى من جزعك فنزلت والضحى والليل الى آخرها والقول بانها رضى الله تعالى عنها أرادت ان هذا الجزع لا ينبغي ان يكون الا من قلى ربك اياك وحاشى اى يقلاك فما هذا الجزع بعيد غاية البعد والمعول ما عليه الجمهور وصحت به الاخبار ان القائل هم المشركون وانه عليه الصلاة والسلام انما أحزنه بمقتضى الطبيعة البشرية تعييرهم وعدم رؤية جبريل عليه السلام مع مزيد حبه اياه وفي بعض الآثار انه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام ما جئتني حتى اشتقت اليك فقال جبريل عليه السلام كنت أنا اليك اشوق ولكني عبد مأمور وتلا وما نتنزل الا بامر ربك وفي رواية انه عاتبه عليهما الصلاة والسلام فقال أما علمت انا لاندخل بيتا فيه كلب ولا صورة وراوي هذا يروى ان السبب في ابطاء الوحي وجود جرو في بيته عليه الصلاة والسلام والروايات في ذلك مختلفة وجوز بعضهم أن يكون الابطاء لتجمع الاسباب ثم أنه قد زعم بعض بناء على بعض الروايات السابقة جواز أن يكون المراد بربك في ماودعك ربك دون ما بعد صاحبك والمراد به جبريل عليه السلام وهو كما ترى وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقلى انه عز وجل لايزال يواصله عليه الصلاة والسلام بالوحي والكرامة في الدنيا بشر صلى الله تعالى عليه وسلم بان ما سيؤتاه في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ لما انها باقية صافية عن الشوائب على الاطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتي عليه الصلاة والسلام من شرف النبوة وان كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الاحكام مع أنه عند ما أعد له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يوم الجمع يوم يقوم الناس لرب العالمين وكون أمته صلى الله تعالى عليه وسلم شهداء على سائر الامم ورفع درجات المؤمنين واعلاء مراتبهم بشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم وغير ذلك من الكرامات السنية التي لاتحيط بها العبارات وتقصر دونها الاشارات بمنزلة بعض المبادي بالنسبة الى المطالب كذا في الارشاد والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل اضافي على معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمت بتأخير الوحي عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين كيف وقد علم بالضرورة ان الخير المعد له عليه الصلاة والسلام خير من المعد لغيره على الاطلاق ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به صلى الله تعالى عليه وسلم على ان اختصاص اللام ليس قصريا كما قرر في موضعه وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا والاولى على الدار الاولى وهي الدنيا هو الظاهر المروي عن أبي اسحق وغيره وقال ابن عطية وجماعة يحتمل ان يراد بهما نهاية أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وبدايته فاللام فيهما للعهد أو عوض عن المضاف اليه أي لنهاية أمرك خير من بدايته لاتزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة وفي بعض الاخبار المرفوعة ما هو أظهر في الاول أخرج الطبراني في الاوسط والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرض على ما هو مفتوح لامتي بعدي فسرني فانزل الله تعالى وللآخرة خير لك من الاولى ثم ان ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي سمعت هو ما اختاره غير واحد من الاجلة وجوز أن يقال فيه انه لما نزل ماودعك ربك وما قلى حصل له عليه الصلاة والسلام به تشريف عظيم فكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم استعظم ذلك فقيل له وللآخرة خير لك من الاولى على معنى ان هذا التشريف وان كان عظيما الا ان مالك عند الله تعالى في الآخرة خير وأعظم

www.Quranpdf.blogspot.in

وجوز أيضا أن يكون المعنى أن انقطاع الوحى لا يجوز ان يكون لما يتوهمون لانه عزل عن النبوة وهو مستحيل فى الحكمة بل أقصى ما فى الباب أن يكون ذلك لانه حصل الاستغناء عن الرسالة وذلك امارة الموت فكأنه تعالى قال انقطاع الوحى متى حصل دل على الموت لكن الموت خير لك فان مالك عند الله تعالى فى الآخرة أفضل مما لك فى الدنيا وهذا كما ترى دون ما قبله بكثير والمتبادر مما قرروه ان الجملة مستانفة واللام فيها ابتدائيــة وقد صرح جمع بانهــا كذلك فى قوله تعالى ﴿ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وقالوا فائدتها تاكيد مضمون الجملة وبعدها مبتدأ محذوف أى ولانت سوف يعطيك الخ وأورد عليه أن التاكيد يقتضى الاعتناء والحذف ينافيه ولذا قال ابن الحاجب ان المبتدأ المؤكد باللام لا يحذف وان اللام مع المبتدأ كقد مع الفعل وان مع الاسم فــكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما كذلك لا يحذف المبتدا وتبقى اللام وانه يلزم التقدير والاصل عدمه وان اللام لتخلص المضارع الذى فى حيزها للحال كتأكيد مضمون الجملة وهو هنا مقرون بحرف التنفيس والتأخير فيلزم التنافى ورد بان المؤكد الجملة لا المبتدا وحده حتى ينافى تأكيده حذفه وكلام ابن الحاجب ليس حجة على الفارسى وأمثاله وان يحذف معها الاسم كثيراً كما ذكره النحاة وكذا قد يحذف بعدها الفعل كقوله

أزف الترحل غير أن ركابنا ✡ لما تزل برحالنا وكان قد

مع أنه لو سلم فقد يفرق كما قال الطيبى بين أن وقد وهذه اللام بانهما يؤثران فى المدخول عليه مع التأكيد بخلاف هذه اللام فان مقتضاها ان تؤكد مضمون الجملة لا غير وهو باق وان حذف المبتدا فالقياس قياس مع الفارق والنحويون يقدرون كثيراً فى الــكلام كما قدروا المبتدا فى نحو قمت واصك عينه وهو لاجل الصناعة دون المعنى كما فيما نحن فيه واللام المؤكــدة لانسلم انها لتخليص المضارع للحال أيضا بل هى لطلق التأكيد فقط ويفهم معها الحال بالقرينة لانه أنسب بالتأكيد وعلى تسليم انها لتخليصه للحال أيضا يجوز أن يقال انها تجردت للتأكيد هنا بقرينة ذكر سوف بعدها والمراد تأكيد المؤخر أعنى الاعطاء لا تاكيد التأخير فالمعنى ان الاعطاء كائن لامحالة وان تاخر لحكمة وعلى تسليم انها للامرين ولا تجرد يجوز ان يقال نزل المستقبل أعنى الاعطاء الذى يعقبه الرضا لتحقق وقوعه منزلة الواقع الحالى نظير ماقيل فى قوله تعالى ان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة وقيل يحسن هذا جدا فيما نحن فيه على القول بان الاعطاء قد شرع فيه عند نزول الآية بناء على أحد أوجهها الآتية بعد ان شاء الله تعالى وذهب بعضهم بان اللام الاولى للقسم وكذا هذه اللام وبقسميتها جزم غير واحــد فالواو عليه للعطف فكلا الوعدين داخل فى المقسم عليه ويكون الله تعالى قد أقسم على أربعة أشياء اثنان منفيان واثنان مثبتان وهو حسن فى نظرى واعترض بان لام القسم لاتدخل على المضارع إلا مع النون المؤكــدة فلو كانت للقسم لقيل لسوف يعطيك ربك ولا يخفى ان هذا أحد مذهبين للنحاة والآخر أنه يستثنى ما قرن بحرف تنفيس كما هنا ففى المغنى انه تجب اللام وتمتنع النون فيه كقوله

فوربى لسوف يجزى الذى ✽ اسلف المرء سيئاً أو جميلا

وكذا مع فصل معمول الفعل بين اللام والفعل نحو ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون ومع كون الفعل للحال نحو لاقسم وقد يمتنعان وذلك مع الفعل المنفى نحو تالله تفتؤ وقد يجبان وذلك فيما بقى نحو تالله لاكيدن أصنامكم وعليه لايتجه الاعتراض مع ان الممنوع بدون النون فى جواب القسم لافى المعطوف عليه كما هنا فانه يغتفر فى التابع مالا يغتفر فى المتبوع وانما ذكرت اللام تأكيدا للقسم وتذكيرا به وبالجملة هذا الوجه أقل دغدغة من الوجه السابق ولا يحتاج فيــه الى توجيــه جمع اللام مع سوف اذ لم يقل أحد من

www.Quranpdf.blogspot.in

علماء العربية بان اللام القسمية مخلصة المضارع للحال كما لايخفى على من تتبع كتبهم وظاهر كلام الفاضل الكانبوى ان كلا من اللامين موضوع للدلالة على الحال ووجه الجمع على تقدير كونها في الآية قسمية بانها محمولة على معناها الحقيقي وسوف محمولة على تأكيد الحكم ولذا قامت مقام احدى النونين عند أبي على الفارسي وقد أطال رحمه الله تعالى الكلام فيما يتعلق بهذا المقام وأتى على غزارة فضله بما يستبعد صدوره من مثله وقال عصام الدين الاظهر ان جملة ماودعك حالية أى ماودعك ربك وماقلاك والحال ان الآخرة خير لك من الاولى وأنت تختارها عليها ومن حاله كذلك لايتركه ربه ففيه ارشاد للمؤمنين الى ماهو ملاك قرب العبد الى الرب عز وجل وتوبيخ للمشركين بماهم فيه من التزام أمر الدنيا والاعراض عن الآخرة وحينئذ معنى قوله سبحانه ولسوف يعطيك انه سوف يعطيك الآخرة ولا يخفى حينئذ كمال اشتباك الجمل انتهى وفيه ان دخول اللام عليها مع دخوله على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعد الحالية جداً وأيضا المعنى ذكره على تقديرها غير ظاهر من الآية وكان الظاهر عليه عندك بدل لك كما لايخفى عليك واختلف في قوله تعالى ولسوف الخ فقيل هو عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله عزوجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الاولين والآخرين وظهور الامر واعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وفي أيام خلفائه عليه الصلاة والسلام وغيرهم من الملوك الاسلامية وفشو الدعوة والاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ولما ادخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الكرامات التى لايعلمها إلاهو جل جلاله وعم نواله وقيل عدة بما أعطاه سبحانه وتعالى في الدنيا من فتح مكة وغيره والجمهور على انه عدة أخروية فاخرج ابن أبي حاتم عن الحسن انه قال هي الشفاعة وروى نحوه عن بعض أهل البيت رضى الله تعالى عنهم أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال قلت لابى جعفر محمد بن على بن الحسين على جدهم وعليهم الصلاة والسلام أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أحق هي قال أى والله حدثنى محمد بن الحنفية عن على كرم الله تعالى وجهه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال اشفع لامتى حتى ينادى ربى ارضيت يامحمد فاقول نعم يارب رضيت ثم اقبل على فقال انكم تقولون يامعشر أهل العراق ان أرجى آية في كتاب الله تعالى ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا قلت انا لنقول ذلك قال فكنا أهل البيت نقول ان أرجى آية في كتاب الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال هي الشفاعة وقيل هي أعم من الشفاعة وغيرها ويرشد اليه ما أخرجه العسكرى في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من جلد الابل فلما نظر اليها قال يافاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة غداً فانزل الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال ابو حيان الاولى العموم لما فى الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعه والخبر المذكور لو سلم صحته لايأبى ذلك نعم عطايا الآخرة أعظم من عطايا الدنيا بكثير فقد روى الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس انه قال أعطاه الله تعالى في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ماينبغى له من الازواج والخدم وأخرج ابن جرير عنه انه قال في الآية من رضا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ان لا يدخل أحد من أهل بيته النار وأخرج البيهقى في شعب الايمان عنه انه قال رضاه صلى الله تعالى عليه وسلم ان يدخل أمته كلهم الجنة وفى رواية الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عنه لايرضى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأحد من أمته فى النار (١) وهذا ماتقتضيه

(١) ومن هنا قيل ✡ ألم يرضك الرحمن فى سورة الضحى ✽ لحاشاك ان ترضى وفينا معذب ✡ اه منه

www.Quranpdf.blogspot.in

شفقته العظيمة عليه الصلاة والسلام على أمته فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا عليهم رؤفا بهم مهتما بأمرهم وقد أخرج مسلم كما في الدر المنثور عن ابن عمر انه صلى الله تعالى عليه وسلم تلا قول الله تعالى في ابراهيم عليه السلام فمن تبعني فانه مني وقوله تعالى في عيسى ان تعذبهم فانهم عبادك الآية فرفع عليه الصلاة والسلام يديه وقال اللهم امتي امتي وبكى فقال الله تعالى ياجبريل اذهب الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له انا سنرضيك في امتك ولا نسوءك وفي اعادة اسم الرب مع اضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالا يخفى ايضا من اللطف به صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ تعديل لما افاض عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من اول امره الى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا وانشراحا وحبورا ولذا فصلت الجملة. والهمزة لانكار النفي وتقرير النفي على ابلغ وجه كانه قيل قد وجدك الخ ووجدته على ما قال الرضي بمعنى اصبته على صفة ويراد بالوجود فيه العلم مجازا بعلاقة اللزوم وفي مفردات الراغب لوجود اضرب وجود بالحواس الظاهرة ووجود بالقوى الباطنة ووجود بالعقل ومانسب الى الله تعالى من لوجود فبمعنى العلم المجرد اذ كان الله تعالى منزها عن الوصف بالجوارح والآلات وقد فسره بعضهم هنا بالعلم وجعل مفعوله الاول الضمير ومفعوله الثاني يتيما وبعضهم بالمصادفة وجعله متعديا لواحد ويتيما حالا وأنت تعلم ان المصادفة لاتصح في حقه تعالى لانها ملاقاة مالم يكن في علمه سبحانه وتقديره جل شأنه فلابد من التجوز بها عن تعلق علمه عز وجل بذلك واليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه والايواء ضم الشيء الى آخر يقال آوى اليه فلانا أي ضمه الى نفسه أي ألم يعلمك طفلا لا أبالك فضمك الى من قام بامرك روى أن عبد المطلب بعث ابنه عبدالله أبا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يمتار تمرا من يثرب فتوفي ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جنين قد أتت عليه ستة أشهر فلما وضعته كان في حجر جده مع أمه فماتت وهو عليه الصلاة والسلام ابن ست سنين ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثماني سنين مات جده فكفله عمه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وأحسن تربيته صلى الله تعالى عليه وسلم وفي الكشاف ماتت أمه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه وكان شديد الاعتناء بامره الى ان بعثه الله تعالى وكان يرى منه صلى الله تعالى عليه وسلم في صغره ما لم ير من صغير روى انه قال يوما لاخيه العباس ألا أخبرك عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بما رأيت منه فقال بلى قال اني ضممته الي فكنت لا افارقه ساعة من ليل ولا نهار ولم ائتمن عليه أحدا حتى أني كنت أنومه في فراشي فامرته ليلة ان يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهية في وجهه وكره ان يخالفني فقال ياعماه اصرف وجهك عني حتى أخلع ثيابي اني لاأحب ان تنظر الى جسدي فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش اذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته في فراشي فاذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك فجهدت لانظر الى جسده فما كنت أرى شيئا وكثيرا ما كنت أفقده من فراشي فاذا قمت لاطلبه ناداني ها أنا ياعم فارجع وكنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبني وذلك عند مامضى بعض الليل وكنا لانسمي على الطعام والشراب ولا نحمد وكان يقول في أول الطعام بسم الله الاحد فاذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فكنت اعجب منه ولم أرمنه كذبة ولاضحكا ولاجاهلية ولاوقف مع الصبيان وهم يلعبون وهذا لعمري غيض من فيض

في المهد يعرب عن سعادة جده ✡ أثر النجابة ساطع البرهان

www.Quranpdf.blogspot.in

وقيل المعنى ألم يجدك يتيما أبتك المراضع فآواك من مرضعة تحنو عليك بان رزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك والاول هو الظاهر وقيل غير ذلك مما ستعلمه بعد ان شاء الله تعالى ومن بدع التفاسير على ماقال الزمخشرى ان يتيما من قولهم درة يتيمة والمعنى ألم يجدك واحدا في قريش عديم النظير فآواك والاولى عليه ان يقال ألم يجدك واحداً عديم النظير في الخليقة لم يحو مثلك صدف الا مكان فآواك اليه وجعلك في حق اصطفائه وقرأ أبو الاشهب فأوى ثلاثيا فجوز أن يكون من أواه بمعنى آواه وان يكون من أوى له أى رحمه ومصدره اياواية (١) ومأوية ومأوية وتحقيقه على ماقال الراغب أى رجع اليه بقلبه ومنه قوله ✡ أواني ولا كفران لله آية ✡ وقوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَى) عطف على مايقتضيه الانكار السابق كما أشير اليه أو على المضارع المنفى بلم داخل في حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيما فآوى ووجدك غافلا عن الشرائع التى لاتهتدى اليها العقول كما في قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب وقوله سبحانه وان كنت من قبله لمن الغافلين فهداك الى مناهجها في تضاعيف ماأوحى اليك من الكتاب المبين وعلمك مالم تكن تعلم وعلى هذا كما قال الواحدى أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج وروى سعيد بن المسيب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سافر مع عمه أبى طالب الى الشام فبينما هو راكب ناقة ذات ليلة ظلماء وهو نائم جاءه ابليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام فنفخ ابليس نفخة وقع منها بالحبشة ورده الى القافلة فما في الآية اشارة الى ذلك على ماقيل وقيل اشارة الى ماروى عن ابن عباس من انه صلى الله تعالى عليه وسلم ضل وهو صغير عن جده في شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفا من أغنامه فرده لجده وهو متعلق باستار الكعبة يتضرع الى الله تعالى في أن يرد اليه محمدا وذكر له أنه لما رآه أناخ الناقة وأركبه من خلفه فابت أن تقوم فاركبه أمامه فقامت فكانت الناقة تقول يا أحمق هو الامام فكيف يقوم خلف المقتدى وفي ارجاعه عليه الصلاة والسلام الى أهله على يد أبى جهل وقد علم سبحانه منه انه فرعونه يشبه ارجاع موسى عليه السلام الى أمه على يد فرعون وقيل ضل عليه الصلاة والسلام مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا وتضرع الى الله تعالى فسمعوا مناديا ينادى من السماء يامعشر الناس لا تضجوا فان لمحمد ربا لايخذله ولا يضيعه وان محمدا بوادى تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فاذا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالاغصان والاوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب فضالا على هذه الروايات من ضل في طريقه اذا سلك طريقا غير موصلة لمقصده وضعف حمل الآية على ذلك بان مثله بالنسبة الى ما تقدم لايعد من نعم الله تعالى على مثل نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم التى يمتن سبحانه بها عليه وقيل الضال الشجرة المنفردة في البيداء ليس حولها شجر والمراد أما وجدك وحدك ليس معك أحد فهدى الناس اليك ولم يتركك منفردا وقال الجنيد قدس سره أى وجدك متحيرا في بيان الكتاب المنزل عليك فهداك لبيانه وفيه قرب مامن الاول وقال بعضهم وجدك غافلا عن قدر نفسك فاطلعك على عظيم محلك وقيل وجدك ضالا عن معنى محض المودة فسقاك كاسا من شراب القربة والمودة فهداك به الى معرفته عز وجل وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه كنت ضالا عن محبتى لك في الازل فمننت عليك بمعرفتى وهو قريب من سابقه وقال الحريرى أى وجدك مترددا في غوامض معانى المحبة فهداك لها وهو أيضا كذلك وكل ذلك منزع صوفي ورأى أبو حيان في منامه ان الكلام على حذف مضاف والمعنى ووجد رهطك ضالا فهدى بك وهو كما ترى في يقظتك وقوله تعالى

(١) قوله ومأوية ومأوية الاول مشدد والثانى مخفف اه

www.Quranpdf.blogspot.in

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ على نمط سابقه والعائل المفتقر من عال يعيل عيلا وعيلة وعيولا ومعيلا افتقر أى وجدك عديم المقتنيات فاغناك بما حصل لك من ربح التجارة وذلك في سفره صلى الله تعالى عليه وسلم مع ميسرة الى الشام وبما وهبتــه لك خديجة رضى الله تعالى عنها من المال وكانت ذا مال كثير فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام وهبته جميعه له صلى الله تعالى عليه وسلم لئلا يقول قائل ما يثقل على سمعه الشريف عليه الصلاة والسلام وبمال أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وكان أيضا ذا مال فانى به كله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام ما تركت لعيالك فقال تركت الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل بما أفاء عليك من الغنائم وفيه ان السورة مكية والغنائم انما كانت بعد الهجرة وقيل المراد قنعك وأغنى قلبك فان غنى القلب هو الغنى وقد قيل من عدم القناعة لم يفده المال غنى وقيل أغناك به عز وجل عما سواه وهــذا الغنى بالافتقار اليه تعــالى وفي الحديث اللهم أغننى بالافتقار اليك ولاتفقرنى بالاستغناء عنك وبهذا ألم بعض الشعراء فقال.

ويعجبنى فقرى اليك ولم يكن ☆ ليعجبنى لولا محبتــك الفقر

وشاع حــديث الفقر فخــرى وحمل الفقر فيه على هذا المعنى وهو على ماقال ابن حجر باطل موضوع وأشد منه وضعا وبطلانا مايذكره بعض المتصوفة اذا تم الفقر فهوالله سبحانه وتعــالى عما يقولون علوا كبيرا وقد خاضوا فى بيان المراد به بمــالايدفع بشاعته بل لايقتضى استقامته وقيل عائلا أى ذا عيال من عال يعول عولا وعيالة كثر عياله ويحتمل المعنيين قول جرير

الله نزل في الكتاب فريضة ☆ لابن السبيل وللفقير العائل

ولعــل الثــانى فيه أظهر ورجح الاول فى الآية بقراءة ابن مسعود عديما وانه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال فى أول أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وقرأ اليمانى عيلا كسيد بشد الياء المكسورة هذا وذكر عصام الدين في هذه الآيات انه يحتمل أن يراد باليتيم فاقد المعلم فان الآباء ثلاثة من علمك ومن زوجك ومن ولدك ويناسبه حمل الضلال على الضلال عن العلم وحمل العيال أى على تفسير عائلا بذا عيال على عيال الامة الطالبة منه معرفة مصالح الدين مع احتياجه الى المعرفة فاغناه الله تعالى بالوحى اليه عليه الصلاة والسـلام ولا يخفى ما فيه وحذف المفعول فى الافعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل وقيل ليدل على سعة الكرم والمراد آواك وآوى لك وبك وهداك ولك وبك وأغناك ولك وبك وظاهر الفاء مع تلك الافعال نأبى ذلك وأطال الامام الكلام في الآيات وأتى فيها بغث وسمين ولولا خشية الملل لذكرنا ما فيه ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فلا تستذله كما قال ابن سلام وقريب منــه قول مجاهد لاتحتقره وقال سفيان لاتظلمه بتضييع ماله وفى معناه ما قيل لاتغلبه على ماله ولعل التقييد لمراعاة الغالب والاولى حمل القهر على الغلبة والتذليل معا بان يراد به التسلط بما يؤذى أو باستعمال المشترك في معنييه على القول بجوازه وفي مفردات الراغب القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما وقرأ ابن مسعود والشعبى وابراهيم التيمى فلا تكهر بالــكاف بدل القاف ومعناه على مافى البحر فلا تقهر وفي تهذيب الازهرى الكهر القهر والكهر عبوس الوجه والكهر الشتم واختار بعضهم هنا أوسطها فالمعنى فلا تعبس فى وجهه وهو نهى عن الشتم والقهر على ما سمعت من معناه من باب الاولى واياما كان ففى الآية دلالة على الاعتناء بشأن اليتيم وعن ابن مسعود مرفوعا من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة وعن عمر رضى الله تعــالى عنــه مرفوعا أيضا ان اليتيم اذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته ياملائكتى من ابكى هذا اليتيم

www.Quranpdf.blogspot.in

الذي غيب أبوه في التراب فيقول الملائكة أنت أعلم فيقول الله تعالى ياملائكتي اني أشهدكم ان على لمن أسكته وارضاه أن أرضيه يوم القيامة فكان عمر رضي الله تعالى عنه اذا رأى يتيما مسح رأسه وأعطاه شيئاً ولم يصح في كيفية مسحه شيء والرواية عن ابن عباس في ذلك قد قيل فيها ماقيل وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال أنا وكافل اليتيم كهاتين اذا اتقى الله عز وجل واشار بالسبابة والوسطى الى غير ذلك من الاخبار ﴿ وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء أورده بقول جميل وأريد به عند جمع السائل المستجدي الطالب لشيء من الدنيا وتدل الآية على الاعتناء بشأنه أيضا وعن ابراهيم ابن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا الى الآخرة وعن ابراهيم النخعي السائل يريد الآخرة يجيء الى باب أحدكم فيقول أتبعثون الى أهليكم بشيء وشاع حديث للسائل حق وان جاء على فرس وقد قال فيه الامام أحمد كما في تمييز الطيب من الخبيث لا أصل له وأخرجه أبو داود عن الحسين ابن علي رضي الله تعالى عنهما موقوفا وسكت عنه وقال العراقي سنده جيد وتبعه غيره وقال ابن عبد البر انه ليس بالقوي وعول كثير على ماقال الامام أحمد وفي معناه احتمالان كل منهما يؤذن بالاهتمام بأمر السائل وروى من طرق عن عائشة وغيرها والصدق السائل ما أفلح من رده وهو أيضا على ماقال ابن المديني لا أصل له وقال ابن عبد الرحيم أسانيده ليست بالقوية نعم أخرج الطبراني في الكبير عن أبي امامة مرفوعا ما يقرب منه وهو لولا ان المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم ولم أقف على من تعقبه . ثم النهي على النهر على ماقالوا اذا لم يلح في السؤال فان ألح ولم ينفع الرد اللين فلا بأس بالزجر وقال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم المراد بالسائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال ولعل النهي عن زجره على القول الأول يعلم بالاولى ويشهد للاولوية أنه أنه لا وعيد على ترك أعطاء المستجدي لمن يجد مايستجديه بخلاف ترك جواب سائل العلم لمن يعلم ففي الحديث من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار وسيأتي ان شاء الله تعالى ماقيل من ان الظاهر الثاني من القولين ﴿ وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فان التحدث بها شكرها كما قال عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والفضيل بن عياض وأخرج البخاري في الأدب وأبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء عن جابر بن عبد الله مرفوعا من أعطى عطاء فوجد فليجز به فان لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير اذا لم يرد به الرياء والافتخار وعلم الاقتداء به بل بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم حمل الآية على ذلك أخرج ابن أبي حاتم عن مقسم قال لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما فقلت أخبرني عن قول الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث فقال الرجل المؤمن يعمل عملا صالحا فيخبر به أهل بيته وأخرج ابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال فيها اذا أصبت خيرا فحدث اخوانك والظاهر أن المراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم من فنون النعم التي من جملتها ماتقدم وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوة ورووا عنه أيضا تفسيرها بالقرآن ووافقه في الاول محمد بن اسحق وفي الثاني الكلبي وعليهما المراد بالتحديث التبليغ ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها فقيل على اللف والنشر المشوش وحاصل المعنى انك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك وهداك واغناك فهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى فتعطف على اليتيم وترحم على السائل فقد ذقت اليتم والفقر وقوله تعالى وأما بنعمة الخ في مقابلة قوله سبحانه وجدك ضالا فهدى لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من

www.Quranpdf.blogspot.in

الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل فانه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين وقيـل لتقديم التخلية على التحليـة أو للترقى أو لمراعاة الفواصل ونظر في كل ذلك وقال الطيبى الظاهر ان المراد بالسائل طالب العلم لا المستجد وعليه لامانع من كون التفصيل على الترتيب فيقال انه تعالى ذكـر أحواله صلى الله تعالى عليـه وسلم على وفق الترتيب الخارجى بان يراد بهدايته عليه الصلاة والسلام مايعم توفيقه للنظر الصحيح في صباه فقـد كان صلى الله تعالى عليه وسلم موفقا لذلك ولذا لم يعبد عليه الصلاة والسلام صنما أو يراد باغنائه ماكان بعد البعثة ثم فصل سبحانه على ذلك الترتيب فجعل عدم قهر اليتيم في مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصـلاة والسلام في يتمه وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه في مقابلة هدايتـه له والتحدث بالنعمة في مقابلة الغنى وان كانت النعمة شاملة له ولغيره وآثر سبحانه فحدث على فخبر قيل ليكون ذكر النعمة منه عليه الصلاة والسلام حديثا لا ينساه ويوجده ساعة غب ساعة والله تعالى أعلم وندب التكبير عند خاتمة هذه السورة الكريمة وكذا مابعدها الى آخر القرآن العظيم فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الشعب من طريق أبى الحسن البزى المقرى قال سمعت عكرمة بن سليمان يقول قرأت على اسماعيل بن قسطنطين فلمـا بلغت والضحى قال كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فانى قرأت على عبـد الله بن كثير فلما بلغت والضحى قال كبر حتى تختم وأخبره عبد الله ابن كثير أنه قرأ على مجاهد فامره بذلك وأخبره ان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره ان أبى بن كعب رضى الله تعـالى عنه أمره بذلك وأخبره ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحا بنزول الوحى بعد تأخره وبطئه حتى قيل ماقيل هذا وعلى ذلك عمل الناس اليوم والحمد لله رب العالمين

سورة الضحى

مكية باتفاق. وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿والضُّحَى. والليلِ إذا سَجَى﴾ قد تقدّم القول في ﴿الضحى﴾[١] والمراد به النهار؛ لقوله: ﴿والليلِ إذا سَجَى﴾ فقابله بالليل. وفي سورة ﴿الأعراف﴾ ﴿أفأَمِنَ أهْلُ القُرى أن يأتِيَهم بأسُنا بَيَاتاً وهم نائِمون. أو أَمِن أهْلُ القرى أن يأتِيهم بَأسُنَا ضُحَى وهمْ يَلْعَبُون﴾[٢] أي نهاراً. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج. وقيل: هي الساعة التي خرّ فيها السَّحَرة سجداً. بيانه قوله تعالى: ﴿وأن يُحْشَر الناس ضحى﴾[٣]. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه ورب الضحى. و ﴿سَجَا﴾ معناه: سكن؛ قاله قتادة ومجاهد وآبن زيد وعكرمة. يقال: ليلة ساجية أي ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سَجْواً[٤]: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن. قال الأعشى:

فما ذنبنا[٥] أن جاش بحر آبن عمكم ... وبحرك ساجٍ ما يوارِي الدعا مِصا

وقال الراجز:

يا حَبّذَا القَمْرَاءُ والليلُ الساجْ ... وطُرُقٌ مِثلُ مِلاءِ النّساجْ

---

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء. (٢) آية ٩٧، ٩٨. (٣) آية ٥٩ سورة طه.

(٤) في «اللسان»: «يسجو سجواً وسجواً». (٥) في ديوان الأعشين:

أتــوعــدنــي أن جــاش . . .

الدعامص: جمع الدعموص: وهو دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء.

وقال جرير:

ولقد رمينَك يوم رُحْن بأعينٍ ينظرن من خِلَل الستور سواجي

وقال الضحاك: ﴿سجا﴾ غطّى كل شيء. قال الأصمعيّ: سَجْو الليل: تغطيته النهار؛ مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشى بظلامه؛ وقاله ٱبن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظلم. وقال سعيد بن جبير: أقبل؛ وروي عن قتادة أيضاً. وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد: ﴿سجا﴾ استوى. والقول الأوّل أشهر في اللغة: ﴿سجا﴾ سكن؛ أي سكن الناس فيه. كما يقال: نهار صائم، وليل قائم. وقيل: سكونه استقرار ظلامه واستواؤه. ويقال: ﴿والضحى. والليلِ إذا سَجَا﴾: يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليلِ إذا أظلم. ويقال: ﴿الضحى﴾: يعني نور الجنة إذا تنوّر. ﴿والليل إذا سجا﴾: يعني ظلمة الليل إذا أظلم. ويقال: ﴿والضحى﴾: يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار. ﴿والليلِ إذا سجا﴾: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء. ﴿ما ودّعَكَ ربُّك﴾: هذا جواب القسم. وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودّعه؛ فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقيل: خمسة وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً. فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء. وفي البخاريّ عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً؛ فجاءت امرأة[1] فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربَك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عز وجل ﴿والضُّحى. والليل إذا سجى. ما ودّعك ربك وما قلى﴾. وفي الترمذيّ عن جندب البجلي قال: كنت مع النبيّ ﷺ في غار فدمِيت إصبعه، فقال النبيّ ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ،

---

(١) هي العوراء بنت حرب، أخت أبي سفيان، وهي حمالة الحطب، زوج أبي لهب.

وفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ما ودَّعَكَ رَبُّك وما قَلَى﴾. هذا حديث حسن صحيح. لم يذكر الترمذي: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً» أسقطه الترمذيّ. وذكره البخاري، وهو أصح ما قيل في ذلك. والله أعلم. وقد ذكره الثعلبي أيضاً عن جندب بن سفيان البجلي، قال: رُمِي النبيّ ﷺ في إصبعه بحجر، فدمِيت، فقال: «هلْ أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سبيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم الليل. فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قرِبك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت ﴿والضُّحَى﴾. وروي عن أبي عِمران الجَوْني، قال: أبطأ جبريل على النبيّ ﷺ حتى شق عليه؛ فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كتِفيه، وأنزل عليه: ﴿ما ودّعك ربُّك وما قَلَى﴾. وقالت خولة ـ وكانت تخدُم النبيّ ﷺ ـ: إن جَرْواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبيّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي. فقال: «يا خولة، ما حدث في بيتي؟ ما لجبريل لا يأتيني»! قالت خولة فقلت: لو هيأت البيت وكنسته؛ فأهويت بالمِكنسة تحت السرير، فإذا جَرْوٌ ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار؛ فجاء نبيّ الله ترعد لَحْياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرِّعدة ـ فقال: «يا خولة دثِريني» فأنزل الله هذه السورة. ولما نزل جبريل سأله النبيّ ﷺ عن التأخر فقال: «أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صُورة». وقيل: لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال: «سأخبركم غداً» ولم يقل إن شاء الله. فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله ﴿ولا تقولنّ لِشيءٍ إني فاعِل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾[1] فأخبره بما سئل عنه. وفي هذه القصة نزلت ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾. وقيل: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، ما لك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجِبكم ـ وفي رواية براجِمكم[2] ـ ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم». فنزل

---

(١) آية ٢٣ سورة الكهف.

(٢) الرواجب (واحدها راجبة): وهي ما بين عقد الأصابع. والبراجم (واحدها برجمة بالضم): هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ.

جبريل بهذه السورة؛ فقال النبيّ ﷺ: «ما جئت حتى اشتقت إليه» فقال جبريل: «وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكني عبد مأمور» ثم أنزِل عليه ﴿وما نتنزل إلا بأمرِ ربك﴾[١]. ﴿ودّعك﴾ بالتشديد: قراءة العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارق. وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرأاهُ ﴿وَدَعك﴾ بالتخفيف، ومعناه: تركك. قال:

وثـم وَدَعْنـا آلَ عمـرو وعـامـر   فرائسَ أطراف المثقفة[٢] السمْرِ

واستعماله قليل. يقال: هو يدع كذا، أي يتركه. قال المبرد محمد بن يزيد: لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك.

قوله تعالى: ﴿وما قَلَى﴾ أي ما أبغضك ربك منذ أحبك. وترك الكاف، لأنه رأس آية. والقِلَى: البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول: قلاه يقلِيه قِلًى وَقَلاء. كما تقول: قريت الضيف أقرِيه قِرًى وقَرَاء. ويقلاه: لغة طيء. وأنشد ثعلب:

أيـــامِ[٣] أمِّ الغَمْـــر لا نَقْـــلاهـــا

أي لا نُبغضها. ونَقْلِي أي نُبغض. وقال[٤]:

أسِيئي بنا أو أحْسِنِي لا ملومةٌ   لـديـنـا ولا مَقْلِيّـةٌ إنْ تَقَلَّـتِ

وقال امرؤ القيس:

ولســتُ بمقلِــيّ الخِــلال ولا قــالِ[٥]

وتأويل الآية: ما ودّعك ربك وما قلاك. فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل: ﴿والذاكِرين الله كثيراً والذاكِراتِ﴾[٦] أي والذاكراتِ الله.

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم.   (٢) المثقفة والمثقف: الرمح.

(٣) كذا في «اللسان». وفي «الأصول»: «يا رب». وبعده كما في «اللسان»:

ولـــو تشـــاء قبلـــت عينـــاهـــا

(٤) هوكثير عزة.   (٥) صدر البيت:

صـــرفـــت الهـــوى عنهـــن مـــن خشيـــة الـــردى

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب.

[٤] ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

روى سلمة عن ٱبن إسحاق قال: ﴿وَللآخِرة خير لكَ مِنَ الأُولى﴾ أي ما عندي في مرجعك إليّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا. وقال ٱبن عباس: أُرِي النبيّ ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسُرّ بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿وللآخِرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطِيك ربك فترضى﴾. قال ٱبن إسحاق: الفَلْجُ في الدنيا، والثواب في الآخرة. وقيل: الحوض والشفاعة. وعن ٱبن عباس: ألفُ قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك. رفعه الأوزاعيّ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أرِي النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمّته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، فأعطاه الله جلّ ثناؤه ألف قصر في الجنة، ترابها المسك؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وعنه قال: رضِي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال السدي. وقيل: هي الشفاعة في جميع المؤمنين. وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفعنِي الله في أُمّتِي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيت يا محمد؟ فأقول يا رب رضِيت». وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿فمن تَبِعَنِي فإنه منِي ومَنْ عصانِي فإنكَ غفورٌ رحِيمٌ﴾(١) وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عِبادك﴾(٢)، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك» فأتى جبريل النبيّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم.
(٢) آية ١١٨ سورة المائدة.

ولا نَسوءك»[1]. وقال عليّ رضي الله عنه لأهل العراق: إنكم تقولون إن أرجَى آية في كتاب الله تعالى: ﴿قل يا عِبادِيَ الذِين أسرَفوا على أنفسِهِم لا تقنطوا مِن رحمةِ اللَّهِ﴾[2] قالوا: إنا نقول ذلك. قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَسَوف يعطيكَ ربك فترضَى﴾. وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «إذاً واللَّهِ لا أرضَى وواحد من أمتي في النار».

[٦] ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾.

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿ألم يجدْكَ يَتِيماً﴾ لا أب لك، قد مات أبوك. ﴿فآوى﴾ أي جعل لك مأوى تأوِي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك. وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أُوتِم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق. وعن مجاهد: هو من قول العرب: درّة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثل. فمجاز الآية: ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

[٧] ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾.

أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوّة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿لا يضِلُّ ربي ولا ينسى﴾[3] أي لا يغفل. وقال في حق نبِيه: ﴿وإن كنت مِن قبلِهِ لمن الغافِلِين﴾[4]. وقال قوم: ﴿ضالاّ﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. وهو معنى

---

(١) رواية الحديث كما ورد في «صحيح مسلم»: كتاب الإيمان: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى؛ فقال الله عز وجل: «يا جبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيك» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم؛ فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر. (٣) آية ٥٢ سورة طه. (٤) آية ٣ سورة يوسف.

قوله تعالى: ﴿ما كنت تدرِي ما الكتاب ولا الإيمان﴾، على ما بينا في سورة ﴿الشورى﴾[١]. وقال قوم: ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي في قوم ضلال، فهداهم الله بك. هذا قول الكلبي والفرّاء. وعن السدي نحوه؛ أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ عن الهجرة، فهداك إليها. وقيل: ﴿ضالاً﴾ أي ناسياً شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أن تَضِلّ إحداهما﴾[٢]. وقيل: ووجدك طالباً للقِبلة فهداك إليها؛ بيانه: ﴿قد نَرى تَقَلُّبَ وجهِك في السماءِ...﴾[٣] الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب. وقيل: ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير. وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: ووجدك محِباً للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تاللَّهِ إنك لفِي ضلالِك القدِيم﴾[٤] أي في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلالُ أشاب مني المفرِقا ... والعارِضَيْنِ ولم أكن متحققا[٥]
عجباً لعزةَ في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: ﴿ضالاً﴾ في شِعاب مكة، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب. قال ابن عباس: ضل النبيّ ﷺ وهو صغير في شِعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه، فردّه إلى جده عبد المطلب؛ فمنّ الله عليه بذلك، حين ردّه إلى جده على يدي عدوّه. وقال سعيد بن جبير: خرج النبيّ ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظَلْماء، فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك. وقال كعب: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لتردّه على عبد المطلب،

(١) آية ٥٢ راجع ١٦/ ٥٥.
(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة.
(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة.
(٤) آية ٩٥ سورة يوسف.
(٥) المفرق (كمقعد ومجلس): وسط الرأس. والعارض: صفحة الخد.

فسمعت عند باب مكة: هنيئاً لكِ يا بطحاء مكة، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال. قالت: فوضعته لأُصلِح ثيابي، فسمعت هدّة شديدة، فألتفت فلم أره، فقلت: مَعْشَر الناس، أين الصبيّ؟ فقالوا: لم نر شيئاً؛ فصحت: وامحمداه! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تزل مِنتك على قريش، وهذه السعدِية تزعم أن ٱبنها قد ضل، فردّه إن شئت. فانكب «هُبَلُ» على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد. فألقى الشيخ عصاه، وٱرتعد وقال: إن لابنِك رباً لا يضيعه، فٱطلبيه على مَهَل. فٱنحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يجدوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرع إلى الله أن يردّه، وقال:

يـا ربِّ رُدَّ ولـدي محمـدَا ... ٱردده ربـي وٱتخـذ عنـدي يـدا

يـا رب إنْ محمـدٌ لـم يُـوجـدا ... فشمـل قـومـي كلهـم تبـدّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشرَ الناس لا تضِجوا، فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمداً بوادي تِهامة، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبيّ ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ ليلة المِعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش. وقال أبو بكر الورّاق وغيره: ﴿ووجدك ضالاً﴾: تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك. وقال بسام بن عبد الله: ﴿ووجدك ضالاً﴾ بنفسك لا تدري من أنت، فعرفك بنفسِك وحالك. وقال الجنيدي: ووجدك متحيراً في بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه: ﴿لِتبين لِلناسِ ما نُزِّل إليهِم﴾[١] . . . الآية. ﴿لِتبين لهم الذين ٱختلفوا فِيهِ﴾[٢]. وقال بعض المتكلّمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل.

(٢) آية ٦٤ سورة النحل.

لنبيه محمد ﷺ: ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فَهدَيتُ بك الخلقَ إليّ.

قلت: هذه الأقوال كلها حِسان، ثم منها ما هو معنويّ، ومنها ما هو حِسيّ. والقول الأخير أعجب إليّ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية. وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يُظهر لهم خلافاً على ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يُظَنُّ به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة. وقال الكلبيّ والسدّي: هذا على ظاهره؛ أي وجدك كافراً والقوم كفار فهداك[1]. وقد مضى هذا القول والردّ عليه في سورة ﴿الشورى﴾[2]. وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشرك، فميزك عنهم. يقال: ضل الماء في اللبن؛ ومنه ﴿أئِذا ضَلَلْنا فِي الأرضِ﴾[3] أي لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته. وفي قراءة الحسن ﴿ووجدك ضالٌ فهدى﴾ أي وجدك الضال فأهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ لا يهتدي إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

[٨] ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

أي فقيراً لا مال لك. ﴿فأغنى﴾ أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها؛ يقال: عال الرجل يعِيل عَيلة: إذا افتقر. وقال أُحَيحة بن الجُلاح:

فما يَـدْرِي الفقيـرُ متـى غِنـاهُ ومـا يـدْرِي الغنِـيّ متـى يَعِيـل

أي يفتقر. وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق. وقال الكلبِيّ: قنعك بالرزق. وقال أبن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. وقال الأخفش: وجدك ذا عيال؛ دليله ﴿فأغنى﴾. ومنه قول جرير:

اللَّهُ أنزلَ في الكتاب فريضةً لابـن السبيـل ولِلْفقيـر العـائـل

---

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، ولا لأحد من الأنبياء؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوّة وبعدها، من الكبائر والصغائر على الصحيح.

(٢) راجع ١٦/ ٥٥ فما بعدها. (٣) آية ١٠ سورة السجدة.

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها. وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيرِي: وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة.

وقراءة العامة ﴿عائلاً﴾. وقرأ ابن السميقع ﴿عَيِّلا﴾ بالتشديد؛ مثل طيب وهين.

[٩] ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ﴾ أي لا تَسَلَّطْ[١] عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى. وعن مجاهد ﴿فلا تقهر﴾ فلا تَحْتَقِرْ. وقرأ النخَعِيّ والأشهب العُقَيليّ ﴿تكْهر﴾ بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود. فعلى هذا يحتمل أن يكون نهياً عن قهره، بظلمه وأخذ ماله. وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلَّظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه. والعرب تعاقب بين الكاف والقاف. النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كَهَره: إذا اشتدّ عليه وغلَّظ. وفي «صحيح مسلم» من حديث معاوية بن الحكم السلمِي، حين تكلم في الصلاة بردّ السلام، قال: فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث. وقيل: القهر الغلبة. والكَهْر: الزجر.

الثانية ـ ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبِره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. ورِوي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبيّ ﷺ قسوة قلبه؛ فقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين». وفي «الصحيح» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين».

(١) في بعض نسخ الأصل: «لا تسطو».

وأشار بالسبابة والوُسطى. ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسْكَتَه وأرضاه؟ أن أرضِيه[1] يوم القيامة». فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضم يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له حجاباً من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة». وقال أكثم بن صَيْفِيّ: الأذلاّء أربعة: النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وأما السائلَ فلا تنهرْ﴾ أي لا تزجره؛ فهو نهي عن إغلاظ القول. ولكن رُدَّه ببذل يسير، أو ردّ جميل، واذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعن أحدُكم السائلَ، وأن يعطِيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلْبين[2] من ذهب». وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال: يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعِيّ: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء. وروي أن النبي ﷺ قال: «رُدُّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله». وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدِّين؛ أي فلا تنهره بالغِلظة والجَفْوة، وأجبه برفق ولين؛ قاله سفيان. قال ابن العربيّ: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالِم، على الكفاية؛ كإعطاء سائل البِرّ سواء. وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبة رسول الله ﷺ. وفي حديث أبي هارون العَبْديّ، عن أبي سعيد الخُدْري[3]، قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مَرْحَباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تَبَع

(١) كذا في «الأصول» ط، ب، ح، ص.
(٢) القلب (بضم وسكون): السوار.
(٣) القائل هو أبو هارون العبدي.

وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً». وفي رواية «يأتيكم رجال مِن قِبل المشرق»... فذكره. و ﴿اليتيم﴾ و ﴿السائل﴾ منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروي أن النبيّ ﷺ قال: «سألت ربي مسألة ودِدت أني لم أسألها: قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلاناً كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتِك ما لم أُوتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورة البقرة، ألم أتخذك خليلاً، كما اتخذت إبراهيم خليلاً؟ قلت بلى يا رب».

الرابعة - قوله تعالى: ﴿وأما بِنعمةِ ربك فحدث﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبي نجِيح عن مجاهد ﴿وأما بنعمة ربك﴾ قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوّة؛ أي بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبيّ ﷺ، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً، فحدّث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فِراس، إن مثلك لا يقول هذا! قال يقول الله تعالى: ﴿وأمّا بِنعمةِ ربك فحدث﴾ وتقولون أنتم: لا تَحدَّث بنعمة الله! ونحوه عن أيوب السختيانيّ وأبي رجاء العُطارِديّ رضي الله عنهم. وقال بكر بن عبد الله المَزَنِيّ قال النبيّ ﷺ: «من أُعطِي خيراً فلم يُرَ عليه، سمي بغيض الله، معادياً لنعم الله». وروى الشعبيّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيّ ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدّث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب». وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجُشَمِيّ قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثياب فقال: «ألك مال؟» قلت:

نعم، يا رسول الله، من كل المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثره عليك». وروى أبو سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

فصل ـ يكبّر القارىء في رواية البزيّ عن ابن كثير ـ وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ ـ إذا بلغ آخر ﴿والضحى﴾ كَبَّر بين[1] كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة. وكأنّ المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبيّ ﷺ أياماً، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: «الله أكبر». قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبيّ ﷺ. ولا يكبّر في قراءة الباقين؛ لأنها ذرِيعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه. ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخارِيّ ومسلم: حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد، المقرىء الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت ﴿والضحى﴾ قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت ﴿والضحى﴾ قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أُبَيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبَيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

---

(١) كذا في «الأصول»، ولعل اللفظ (بعد) في مكان (بين).